

قلعة محمد على

تأليف

محمد عبد الجواد الأصمعى

الناشر

مكتبة ومطبعة الغد

قلعة محمد على

لا قلعة نابليون

قلعة محمد علي

لا قلعة نابليون

تأليف

محمد عبد الجواد الأصمعي

الناشر

مكتبة ومطبعة الغد

تليفاكس ٣٢٥٠٢٠٢

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

اسم الكتاب : قلعــة محمــد علــى .
المؤلـــف : محمــد عبــد الجــواد الأصمعــى .
النـــاشــر : مكتبة ومطبعة الغــد .
العنـــوان : ٢٣ش سكة المدينة – ناهيا – إمبابة – جيزة.
تليفاكـــس : ٣٢٥٠٢٠٢ – ٠٢ .
رقم الإيداع : ١٠٠٠٠ / ٢٠٠٦ .
الترقيم الدولى : I.S.B.N : 977-348-088-7
الطبعة الأولى ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .. وبعد

ففي الجهة الشرقية لمدينة القاهرة، خلف قلعة صلاح الدين الأيوبي يوجد بقمة جبل المقطم [١] بالقرب من مسجد **الجيوشي** [٢] قلعة باذخة الأركان، شامخة البنيان، لبث علماء التاريخ والمنقطعون لدراسة الآثار في مصر وغيرها حيناً من الدهر يقولون إنها من عمل عظيم الفرنسيس نابليون، وقد قامت بشأنها في سنة ١٣٣٦ هـ /١٩١٧م ضجّة عظيمة على صفحات الجرائد العربية – بين يومية وأسبوعية – من طلبة المدارس الثانوية والعالية ومحبي إحياء الآثار المصرية لمعرفة حقيقة هذه التسمية، ولماذا سُمِّيت القلعة بهذا الاسم؟ فطلبوا من لجنة حفظ الآثار العربية وصاحب العزّة الشيخ محمد الخضري بك وكيل مدرسة القضاء الشرعي – وأستاذ التاريخ بالجامعة المصرية يومئذ– أن يرشداهم إلى تلك الحقيقة التي عميت عليهم، خصوصا لشهرة الأستاذ بكثرة طوافه في ذلك الحين مع طلبة الجامعة – التي هي من أكبر المعاهد العلمية بمصر – حول الآثار العربية والأبنية الفاخرة المصرية، وأنه مرَّ بها عند زيارته لمسجد «الجيوشي» بصحبة طلبه الجامعة، ورسم معهم هناك صورة شمسية في يوم الجمعة، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ١٣٣٥ هـ (١٩ يناير سنة ١٩١٧م)، ولقد أحدثت هذه القلعة –لكثرة زوارها وتعدد قصادها– رجّة

---

(١) قد أفردنا نبذة تاريخية چيولوچية عن هذا الجبل في رحلتنا المسماة «الغابة المتحجرة».

(٢) قد أفردنا أيضا نبذة تاريخية عن هذا المسجد واختلاف المؤرخين في تسميته وبيان صحة ذلك، وفصلنا كل هذا في رحلتنا السابقة.

كبيرة بين جدران المدارس ومعاهد العلم، حتى تناقلتها أفواه الطلبة بمدارسهم الثانوية والعالية، وتحدثوا بذكرها في غرف التدريس أثناء إلقاء الدروس بسؤال معلميهم، وكادوا ينسون بها قلاع: «أنفرس»، و«لياج»، و«نامور»و «ليل» في الحرب العالمية الكبرى، ولذا تناولتها أقلام الكتاب، وفاضت بها قرائح الشعراء لسكوت فضيلة الشيخ الخضري عن الجواب مدة طويلة، ولو أجاب فضيلة الأستاذ في حينه بما كان يقوله حفظه الأمانة من علماء الإسلام:«لا أدري!»، أو «ما المسئول بأعلم من السائل»! لما أصابه من وابل أقلام الكتاب لوم أو عتاب، واتبع في ذلك ما قاله الإمام محيي الدين الكافيجي في كتاب «التيسير في قواعد علم التفسير» إذ قال:

«سئل ابن عمر عن شيء، فقال: لا أدري، ثم قال بعد ذلك: طوبى لابن عمر، سئل عن شيء لا يدري فقال: لا أدري».

وسئل أبو حنيفة عن الدهر مُنكَّرًا فيمن حلف لا يكلم زيدًا؟ فقال:«لا أدري مقداره» فتوقف في الحكم أيضًا، لتوقفه في مقدار الدهر مُنكَّرًا.

إلاّ أنه لم يفعل ذلك، بل تمادى في السكوت، فكان ذلك هو الداعي في إثارة هذا الضجة الكبيرة التي كانت سببًا في استنهاض همم الباحثين حتى كُشف القناع عن حقيقة مُشيِّد هذه القلعة.

فقد اهتدينا بعد طول البحث وكثرة التنقيب إلى أنها من عمل مُمَدِّن مصر ومحييها، ساكن الجنان المغفور له بإذن الله **محمد علي باشا الكبير** رأس البيت الملكي الكريم حتى صدق فيه قول من قال :

هِمَمُ الْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا ... مِن بَعْدِهِم فَبِأَلْسُنِ الْبُنْيَانِ

إِنَّ الْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ قَدْرُهُ ... أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ

ولمَّا كان ظهور هذه الحقيقة التاريخية يُعَدُّ استكشافًا في التاريخ بادرنا بنشرها بين المحبين لمصر من أهلها ومن غيرهم في جميع الصحف العربية والإفرنجية، وقد أثبتنا النص الفرنسي لهذا البحث التاريخي في آخر الكتاب مُصدَّرًا بكلمة الإهداء باللغة الفرنسية أيضًا.

وقد تجلَّى هذا البحث التاريخي للملإ أجمع باختلاف اللغات، واهتمت بنشره معظم الصحف والمجلات، وأيَّدته لجنة حفظ الآثار العربية بجوابها الرسمي بتاريخ ٩ جمادى الثانية سنة ١٣٣٧هـ (١١ مارس سنة ١٩١٩م) رقم «٦٠٥»، وأمرت بتسجيل هذه القلعة تحت رقم «٤٥٥»، واعتمدته مصلحة المساحة المصرية بجوابها الرسمي بتاريخ ١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٤١هـ (٣ يناير سنة ١٩٢٣م) رقم «أ / ١٠٨»، وأصدر جناب مديرها العام المستر **ل.ب.ولدن** التعليمات اللازمة لوضع اسم «**قلعة محمد علي**» على خرائط هذه المصلحة.

ولمَّا رأينا مع الفخر أن هذا البحث نال استحسان الجميع، عزمنا على طبعه في كتاب خاص شامل لجميع ما أمكننا العثور عليه من أقوال الصحف، والمجلات العربية والإفرنجية لهذا البحث، اللهم إلا بعض ما لم نطلع عليه، ومتضمنا المكاتبات التي دارت بيننا وبين الدوائر الرسمية في هذا الموضوع، قضينا السنين الطوال في سبيل الحصول عليها، حتى استوفيناه من كل الوجوه.

ولشدة ارتباط هذا البحث التاريخي، بالحالة العسكرية في أيام محمد علي اختتمنا صفحاته بنبذة تاريخية ثمينة دبجها يراع حضرة صاحب السمو الأمير

الجليل عمر **طوسون** عن المدارس الحربية والمعامل العسكرية، وحالة الجيش المصري -البري والبحري- في عهد محمد علي، وقد نشرناها بإذن خاص من سموه مشفوعة بكل شكر وإجلال.

وإننا نقدمه إلى الأمة المصرية الناهضة، التواقة إلى المجد والعلياء، النزاعة إلى الحرية والاستقلال، التي جاهدت جهاد الأبطال في سبيل نيلهما، وأظهرت من الوطنية الصادقة ما استوقف أنظار أهل الأرض قاطبة، وتحدَّث بعظمتها وجلالها كل لسان؛ لأنها صرخت صرختها فدوَّت في الخافقين، وقامت قومتها فلفتت أنظار العالمين، مُصممة ألاَّ تعدل عن سعيها حتى تنال ما أقلَّت، أو يكون الموت خيرًا لها. فسجل في تاريخ مصر بمداد المجد والفخار، ونقش على سويداوات القلوب بآيات الإعجاب والإكبار؛ لأننا بهذا البحث التاريخي، رددنا إلى الوطن العزيز «**قلعته**» التي اغتصبها الأجنبي حينًا من الدهر.

بيان للحقيقة والتاريخ

نَسَبَ الرُّوَاةُ إلى الفَرَنس غَرِيبَةً ... لَمْ يَرْوِهَا التَّارِيخُ فِي أدْوَارِهِ

ذَكَرُوا لِنَابُلْيُونَ مَا لَمْ يَبْنِهِ ... وَالْحَقُّ لاَ يَخْفَى عَلَى أَنْصَارِهِ

فَالْجَامِعُ الأَسْمَى بِنَاءَ مُحَمَّدٍ ... وَكَذَاكَ هَذَا الْحِصْنُ مِنْ آثَارِهِ

حفني ناصف

قلعة محمد علي لا قلعة نابليون

لا يعزب عن الأفكار ما دار حول هذه القلعة التي انبرت فيها أقلام الكتاب، وفاضت بها قرائح الأثريين، حتى علت ضجتهم في الصحف - بين يومية وأسبوعية - لإظهار الحقيقة جلية لا تشوبها شائبة، وقد أجاب الأستاذ **الخضري**

وقتئذ - بعد سكوت طويل ذهبت الظنون في تأويله مذاهب شتى - بجواب لو ورد في إبانه لما أثارت الصحف هذه الحرب الشعواء؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الأستاذ سيوافيهم برد مفحم تتدفق مناهل البحث من أطرافه، وتتجلَّى الحقيقة من ثنايا سطوره، ويظهر ذكر من شادها من عباراته حتى يخرجهم من هذه الحيرة، ولكن أبى الأستاذ إلا أن يجعلها شقيقة لـ«**زياد بن أبيه**» فقال: **إني أجهل نسبة هذه القلعة إلى من نسبت إليه، ولا أتحقق نسبتها إلى غيره..** فعميت عليه حقيقتها، ووقف كواحد منهم موقف الحائرين الذاهلين، وقد طلبوا ممن ألموا بأطراف التاريخ، وساءلوا الربوع الدوارس فعرفوا كيانها وكشفوا عن أخبارها أن يفيدوهم بما يعلمونه عن هذه القلعة حتى لا تضرب حولها قلعة أخرى من الأوهام، وقد مرَّت أيام، وتعاقبت شهور، فلم يلبوا الدعاء، أو يجيبوا النداء..

ولذا أصبحت هذه المسالة التاريخية جديرة بالبحث تفاديًا من الوقوع في هذا الارتباك، والخبط في أودية التضليل الذي وقع فيه بعض من يدَّعون البحث والتنقيب، فزعم أن مشيدها السلطان **صلاح الدين الأيوبي**، واستشهد بما قاله **المقريزي** عن «**قلعة الجبل**» المعروفة في جميع كتب التاريخ ويعلمها كل إنسان، وادعى آخرون أنها بنيت في عهد المماليك، والمعروف الآن على ألسنة طلبة العلم وأساتذتهم من مصريين وفرنجة أنها من آثار نابليون، بدون أن يؤيدوا ما يروونه عنها ببرهان أو صحة دليل، حتى تغالوا وكتبوا على بابها بالطلاء جملة بالفرنسية، هذه ترجمتها: « **تذكار من الحملة الفرنسية** »!!.

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلاً لِلَيْلَى ... وَلَيْلَى لاَ تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا

وإذا كانت هذه القلعة، أصبحت مطمح الأنظار ومقصد الـزوار وموضـع الإعجاب والإكبار، وأصبحت أثرًا يؤمه طلاب العلم ويقصده محبـو الآثـار، ويمر بها كل زائر لـ«الغابة المتحجرة» التي أصبحت رؤيتها من الفـروض الواجبة للمدارس المصرية والمعاهد الدينية، فمن العار الكبير أن نجهل حقيقـة من شيد أركانها وأقام بنيانها، بعد أن طال عليها الأمد، وأخني عليهـا الـذي أخنى على لُبد.

ولذا وصلنا سواد الليل ببياض النهار لاستيفاء الأبحـاث التاريخيـة عـن الأماكن الأثرية التي مررنا بها في رحلتنا مع فريق من أصدقائنا مـن طلبـة المدارس الثانوية والعالية إلى «الغابة المتحجرة»، حتى عانينا في ذلك كثيـرًا من المشقة، وكابدنا من المجهود ما لا يعرفه إلا المشتغلون بمثل هذه الأمور.

ولما كانت هذه القلعة من الآثار التي وجب علينا البحث عن حقيقتها، لذكرها ضمن رحلتنا التي ستظهر عما قريب إن شاء الله في عالم المطبوعات مُحـلاَّة بالصور والخرائط بعنوان «الغابة المتحجرة» لم نتـرك كتابًـا مخطوطًـا أو مطبوعًا في تاريخ مصر منذ عهد الدولة الأيوبية إلى أيام المرحوم **محمد علي باشا** إلا قرأناه، ولا بابًا إلا درسناه حتى وفقنا الله بهداية التحقيق إلـى كتـاب مخطوط غير معروف للآن، محفوظ بدار الكتب المصرية ضمن كتب التاريخ تحت رقم «٥٨٥» عنوانه « **تاريخ الوزير محمـد علـى باشـا**» ومؤلفـه **العلامة المؤرخ الشيخ خليل بن أحمـد الرجبـي الشـافعي الشـاذلي**، أحـد معاصريه قال في مقدمته: «إن شيخ الإسلام **الشيخ محمـد العروسـي** أمـره بتأليفه، وأن ذلك كان في سنة ١٢٤٥هـ». أي قبل وفاة مُنقذ مصر ومحييهـا بعشرين سنة.

تصفَّحنا هذا الكتاب الثمين، فإذا هو يحتوي على شذرات من تاريخ مصـــر قبل دخول الفرنسيين إليها، وحالة أمرائها، وأخلاق محمد على باشا، وإخراجه من كان بمصر من المماليك المفسدين وغيرهم، وتعميره أرض مصر، وإحياء قطرها بالزرع، ولكن الأمر المهم والتحفة النادرة في هذا الكتاب الثمين، هو أن المؤلف عقد فصلاً ذكر فيه بعض آثار محمد علي من الأبنية والعمارات وغير ذلك، حينئذ لاحت لنا بوارق الفتوح؛ إذ توسمنا أنه لابد أن يكون فيـــه شـــفاء لغلتنا، وأنه سيكون خير مرشد على ضالتنا المنشودة.

وإنا نحمد الله فقد تحقَّق الظن؛ إذ وجدنا في هذا الأثر النفيس ما كنا نســـعى وراءه من البيان الصحيح والرواية الصادقة فيما يتعلق بشأن هذه القلعة.

فلما ظفرنا بهذه الغنيمة بعد طول البحث وكثرة التنقيب بلغ منا السرور كـــل مبلغ، وعدنا بالغنيمة بعد الجد في الطلب، ورأينا أن نعمها على رجـــال الأدب والبحث، ونزفها إلى المحبين لمصر من أهلها ومن غيرهم بلســـان الصـــحف العربية والإفرنجية.

وقد تثبتنا من صحة رواية هذه النسخة بمراجعة النسخة الأخرى المحفوظـــة بـــ«الخزانة الزكية» فوجدناها مطابقة لها تمام المطابقة، وحينئذ ثبت الصـــبح لذي عينين، وانقطع الشك بمحيا اليقين، فبادرنا بنشر هذه الحقيقة التاريخيـــة، ناصعة بيضاء للقراء، خدمة للحقيقة وللتاريخ، وإلى القارئ ما كتبه هذا المؤرخ الجليل بألفاظه، حتى لا يدع مجالاً للشك، أو محلاً للريب.

قال في «المقالة الرابعة» في ذكر بعض الآثار من الأبنية والعمارات التـــي شيدها ساكن الجنان المغفور له بإذن الله **محمد علي باشا** مؤسس البيت الملكي الكريم ما نصُّه:

ولحضرة أفندينا أبقاه الله من ذلك ما هو العجب العجاب، والأمـــر العظـــيم الذي ليس في جلالته شك ولا ارتياب، فمآثره كثيرة، ومعالم إبداعه شـــهيرة، كادت ألاَّ تحصى، وقاربت أن تُجل عن الاستقصـــا، ولنـــذكر منهـــا طُرفـــاً للسامع، وبهجة لمن ينقله في المجامع..

فمن ذلك الطريق الذي أوصله من باب «قلعة الجبل»، وسار به ممتدًا إلـــى المقطم بإتقان العمل، وكان الطريق قبل ذلك بين القلعة والجبـــل فاصـــلاً، ولا يتمكن من بالقلعة إلا أن يكون من ذلك الطريق للجبل واصلاً، وهذا الطريـــق في غاية الاتساع، يزيد مقداره عن ألف ذراع، وربما أن بعض الأعـــداء إذا اتفق له صعود الجبل، ووقف تجاه القلعة، أن يوصل إليها الخلل؛ لأن الجبـــل عالٍ جدًا، وسفحه يراه الجالس فيه، فوق القلعة ممتدًا، وقد اتفق سابقًا صعود العدو بأعلاه، وأوقع الإيذاء على من بالقلعة ووالاه..

فمن تمام تدبير حضرة أفندينا بثاقب فكرته، ومعرفته بعواقـــب الحـــوادث بصادق فراسته، أنه رغب في أن يجعل القلعة متصلة بأعلى ذلك الجبل، حتى لا يخشى أحد منه، ولا يقع في الوهم منه وجل، ويحكم ذلك ببنـــاء عجيـــب مُتقن مُهَندس غريب فأمر بإحضار العَمَلة والصناع، وجمعهم في هذه المحال والبقاع، فحضروا حسب أمره، وشرع فيما يثني عليه به طول دهره، فأمرهم بنحت الأحجار، وإتقان الصخور المهندمة الكبار، وبإحضار كل ما يحتاجونـــه من جص وغيره، وكل عامل منهم في شأنه وسيره، فابتدءوا من حذاء بـــاب الجبل تجاهه، وأحكموا عملهم متانة وبهجة ووجاهة، وبالغوا في قوة البنـــاء وثباته، وإحكامه متقنًا في كل جهاته، ولا زالوا ســـائرين فـــي ذلـــك البنـــاء المحكم، حتى التصق بالجبل واستقام واستحكم..

ومن رفقه بالمارة هناك، جعل فيه قناطر للاستدراك، يمر السائر في ذلك الطريق الراكب على الجواد، إذا خرج من باب القلعة مارًا في اطراد، لا يزال يكرُّ في طلَق[1] واحد حتى يصير بأعلى الجبل، والعيون له تشاهد؛ بحيث يصير الواحد والجمع العديد بلا تعب في ذلك المسلك السديد، فحبَّذا هذا الاختراع والتجديد، ونعما طالعه الجميل السعيد، وقد كان قبل ذلك يصير الصاعد في تعب شديد، وقلق بحال جهد جهيد..

وبعد أن فرغوا من الطريق وإيصاله، والتصاقه بالجبل وتمام اتصاله، أمر أن يُبنى بذروة الجبل قلعة حصينة تصد بجللها كل وجل، وأن يتخذ بها سبيل جليل لخزن الماء العذب، ليكون ثم كالسلسبيل؛ فبنيت به القلعة مع إتقان التحصن بالأبراج، وهي هناك كالكوكب السامي الساطع الوهَّاج، وظهر بناؤه مظهرًا جميلاً، وأقام به قيمًا رئيسًا وكميًا وكيلاً، وتم إحكام ذلك السبيل المتين، وامتلأ من صافي العذب المعين، ثم أعد به أجناد الحراسة، وأمدهم بأسرار الهمة والحماسة، وشحنه بالذخائر الكاملة، والمدافع المريعة لمن أمَّ له، فصار بهجة للناظر، وحجة لإرغام أنف المناظر، وهو لعمري من أعظم لوازم حفظ القلعة!، وأكبر المنافع لها في القوة والمنعة، وكانت الأمراء والملوك من السابقين، في غفلة عن صنع مثله أجمعين، ولكن للمظاهر أرباب وللمعالي رواد وطلاب ... الخ.

وقد أثبتنا هنا صورة الثلاث صحف الوارد فيها هذا النص التاريخي بحروفه، وهي منقولة من الأصل المحفوظ بدار الكتب المصرية.

---

(١) الطلق (مُحرَّكة): الشوط الواحد في جري الخيل.

ولما قرأنا هذا الوصف بادرنا بالتوجه إلى هذه القلعة مع صديق لنا من المهندسين الفنيين، لنتحقق من وجود هذا الصهريج، وصعدنا من هذا الطريق المذكور، حتى وصلنا سفح جبل المقطم القائمة بأعلاه هذه القلعة ودخلناها فوجدنا هذا الصهريج بوسطها، ثم نزلنا بباطنه.. وإلى القارئ الوصف الفني لداخله من شرح صديقنا المحترم:

«طول الصهريج ١٩ **مترًا و٢٠ سنتيمترًا**، وعرضه ١٠ **أمتار و٢٠ سنتيمترًا**، والارتفاع من وسط عقد الصهريج لغاية الأرضية ٦ **أمتار و ٩٠ سنتيمترًا**، والعمق من جهة الخرزة ٥ **أمتار و١٠ سنتيمترات**، وجميع حوائطه وأراضيه بالخافقي، وبه أربع بوائك في الطول، واثنتان في العرض، وبه عمودان من الزلط على شكل إسطوانة، وعمود من الحجر، وعمود ثالث من الحجر الأحمر على شكل مثمن، وله خرزتان لاستخراج الماء إحداهما قبلية، والأخرى بحرية، وعرض باب الخرزة ٥٢ **سنتيمترًا، وطولها ٥٥ سنتيمترًا**».

وقد عثرنا على توقيع العلامة الفاضل المؤرخ **الرجبي** بالجزءين الثاني عشر والعشرين من كتاب عيون التواريخ للعلامة المؤرخ المعروف **محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي** المتوفي سنة ٧٦٤ هـ، وهما بخط المؤلف، ومحفوظان بخزانة العلامة الباحث الجليل حضرة صاحب السعادة **أحمد تيمور باشا**، عمرها الله ببقاء صاحبها وفي صفحتي ٢٢٩، ٢٧٦ من الجزء العشرين حاشيتان بخط العلامة المؤرخ **الرجبي** أيضًا، مما يثبت أنه رحمه الله قرأهما حرفيًّا، ولعلَّه قرأ الكتاب جميعه، ولم يصل لنا إلا هذان الجزءان.

وقد تفضل حفظه الله فأعارنا المجلَّدين لأخذ صورتي التوقيع والحاشيتين بالتصوير الشمسي، وإثباتها هنا تخليدًا لقيمتها التاريخية، فكان حقًّا علينا أن

نُسطِّر لسعادته آية من الشكر في ثنايا سطور هذا البحث، لما لسعادته من الأيادي البيضاء في خدمة العلم والتاريخ، وقد عرَّفنا المؤرخ **الجبرتي** تاريخ ابتداء العمارة في هذا الطريق ثم القلعة فقال – في صفحة ٩٩ جزء ٤، طبع بولاق– ما نصُّه:

وفي ٢٣ رجب سنة ١٢٢٤هـ نادى منادي المعمار، على أرباب الأشغال، من البنائين، والحجارين، والفعلة، بأن لا يشتغلوا في عمارة أحد من الناس، كائنًا من كان، وأن يجتمع الجميع في عمارة الباشا بناحية الجبل.

وقال في صفحة ١٠٨ من هذا الجزء: **في المحرم سنة ١٢٢٥هـ، طلب الباشا تمهيد الطريق الموصلة من القلعة إلى الزلاقة التي أنشأها طريقًا يصعد منها إلى الجبل المقطم السابق ذكرها.**

قلعة محمد علي وتحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا

ولزيادة التحقيق، طلبت من صاحب السعادة الأستاذ **أحمد زكي باشا** - المعروف بعلو كعبه في البحث والتحقيق، والقدح المعلي في التنقيب - أن يبحث في خرائط الحملة الفرنسية والكتب التي دُوِّنت في أيامهم عن وجود هذه القلعة، إذا كانت من أعمال نابليون كما يدعون أم لا، فبحث -حفظه الله- فيما وضعه المؤرخون الفرنسيون أنفسهم عن الحملة الفرنسية على مصر، الذين لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها في كتبهم، ورسموها في خرائطهم، فلم يجد لهذه القلعة من أثر.

وأفادنا بأن الفرنسيين أنفسهم، وقت استيلائهم على مصر رسموا خريطة القاهرة، ولم يغفلوا الإشارة إلى الأبراج والحصون والاستحكامات التي أقاموها حول عاصمة وادي النيل لقمع الفتن التي كانوا يتوقعون حدوثها داخل القاهرة.

وهذه الخريطة الكبرى لمدينة القاهرة طبعوها ضمن كتابهم الكبير الموسوم «وصف مصر»، وقد طبع هذا الكتاب أول مرة بمطبعة الحكومة الرسمية من سنة ١٨٠٩م إلى سنة ١٨١٣م، ومن سنة ١٨١٨م إلى سنة ١٨٢٨م، ثم طبع مرة ثانية من سنة ١٨٢٠م إلى سنة ١٨٣٠م، أي بعد خروجهم من مصر بنحو ثلاثين سنة.

وفي كلتا الطبعتين لم يظهر أثر مطلقًا لهذه القلعة، لا في المتن ولا في هذه الخريطة الجامعة لكل ما كان في القاهرة وما شيدوه فيها من القلاع والحصون في أيام بونابرت، حتى بعد سفره من مصر، ليس فيها على الإطلاق أدنى أثر لهذه القلعة، التي نحن بصددها، وإنما اقتصروا على الواقع في زمانهم، والمُشيَّد بأمرهم ولمصلحتهم العسكرية.. وهي:

« برج مارتنية، وبرج سورنية، وبرج لامبير، وبرج ريبول، وبرج ديبيوي، وبرج فينو، وبرج جريزيو، وبرج شلكوفسكي».

وهنالك ما هو أكبر في الدلالة والبرهان، وذلك أنهم حولوا بعض الجوامع، وبعض الأبواب الأثرية بمصر، إلى قلاع وأبراج وحصون، وأطلقوا عليها أسماء رجالاتهم وقوادهم، وأهملوا أسماءها العربية التي كانت قبلهم، ولا تزال هذه الأسماء إلى الآن منقوشة عليها مثل« باب الفتوح»، فقد حصنوه وجعلوه قلعة باسم «برج لسكان»، ومثل «مئذنة جامع الحاكم»، فقد فعلوا ذلك فيها وسموها قلعة «فاي»، ومثل «باب النصر»، فقد سموه «برج بوليان»، ثم سموه برج «كوربين»[1] وأمامه «برج ميلهود»، وقد شاهدنا هذه الأسماء بأنفسنا لشدة حرصنا على توخي الصدق وإثبات الواقع، وهي منقوشة في الحجر إلى الآن.

فإذا كان الفرنسيون أطلقوا أسماء رجالاتهم وقوادهم على نفس الجوامع والمآذن الإسلامية، فهل يدور بخلد عاقل أنهم يغفلون الإشارة إلى قلعة بناها بونابرت؟! هذا مالا يتصوره رجل رشيد، وهم إنما لم يذكروها لا لسبب آخر سوى أن بونابرت لم يعرفها ولم يشيدها، ولم يكن لها وجود، لا في أيامه ولا في أيام من بقي بعده من رجال الحملة الفرنسية حتى سنة ١٨٠١م التي تم فيها خروجهم من مصر، وما ذلك إلا لأن هذه القلعة إنما كان بناؤها من سنة ١٨٠٩م إلى سنة ١٨١٠م، أي أنها ظهرت للوجود بعد جلاء الفرنسيين بعشر سنين، وهم كانوا يجهلون إقامتها بعد، فلم يرسموها على خريطتهم، مع أنهم

---

(١) انظر كتاب العلامة الفرنسي «بريس دافن» المطبوع في باريس سنة ١٨٧٧م صفحتي ١٦٣ و ١٦٤

طبعوا هذه الخريطة مرة أخرى بعد بناء القلعة بنحو عشرين سنة، وما ذلك إلا لتحريهم الصدق، ونقل الحقائق كما هي، وإثبات الأمور التي شاهدوها أثناء إقامتهم بديار مصر لا غير، وإليك ما يؤيد هذا.

قلعة محمد علي وتحقيق صاحب السمو الأمير الجليل «عمر طوسون»:

وممّا يؤيد هذا تأييدًا يقينيًّا المستند التاريخي الهام الذي تفضّل بتفصيله لنا حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٣م مشفوعًا بخطاب من حضرة صاحب العزة محمد جلبي بك رئيس معاوني دائرة سموه، وهذا بعض ما ورد فيه بعد الديباجة: **اطلع حضرة صاحب السمو الأمير على كتابكم في شأن حصن «قلعة جبل المقطم»، وهو يشكركم على عنايتكم بهذا البحث التاريخي المفيد، ويوافقكم على ما ذهبتم إليه من أنه من عمل «محمد علي»، وقد كتب لكم سموه مستندًا تاريخيًّا في هذا البحث، فإن كان من ضمن ما عثرتم عليه من المستندات التي أيدتم بها رأيكم فيها، وألا فضموه إلى مستنداتكم.**

وهذا نص المستند التاريخي الهام الذي نثبته حجة قاطعة لتعزيز بحثنا، مشفوعًا بكل شكر وإجلال لسمو الأمير الجليل الذي ما فتئ يعمل على نشر العلم وإظهار الحقائق.. قال حفظه الله:

كان أحد قواد الحملة الفرنسية - التي استولت على القطر المصري تحت قيادة بونابرت - **الماريشال مارمون**[1] الذي عُين في بدء الاحتلال الفرنسي قائدًا للإسكندرية والبحيرة، وبُني في أثناء تلك القيادة حصني كوم الناظورة

---

(١) كان هذا الماريشال اسمه «دوق دى راجوس»وقد كتب وصف رحلته في بلاد الغرب والشرق.

وكوم الدكة، وسمي الأول حصن «كافاريلي» باسم **الجنرال كافاريلي** قائد فرقة مهندسي تلك الحملة، والذي قتل في حصار عكا، والثاني حصن «كريتن» باسم **الكولونيل كريتن** من قسم المهندسين المذكور، والذي قتل في واقعة أبـــي قيــر بين الجيش الفرنسي والعثماني، ودفن في هذا الحصن.

وبعد أن انقضت هذه الحوادث، ورجعت مصر إلى كنـف الدولــة، ســاح **الماريشال مارمون** في بلاد الشرق، وزار مصر في أيام محمــد علــي سـنة ١٨٣٣م، ووصف حالتها في ذلك العصر، وقد جاء في مذكراته ج٣ ص ٢٨١ عن الحصن الصغير الذي فوق قمة جبل المقطم ما يأتي:

لما كانت القلعة يشرف عليها «جبل المقطم» الذي هو نهاية سلسلة جبــال العرب، شيد محمد علي على قمة هذا الجبل حصنا على النسق التركي؛ ليكون في قبضة يده بتحكمه في هذه القمة، وقد عُني بهذا الحصن العناية الواجبة، وجعله قادرًا على مقاومة من يريد اقتحامه، حيث الوسائل المنظمة للمحاصر في أيامنا هذه، غير محتملة التقدير والوقوع.

وهذا الحصن مربع، ضيق النطاق، يستند على سياج مــن الحجــارة، وفــي وسطه برج، والبرج والحصن مسلحان بالمدافع أ.هـــ.

فلو أنها كانت من أعمال بونابرت لما ذكرها الماريشال مارمون في مذكراته بهذا النص الصريح الذي لا يحتمل الشك والتأويل، ولما أغفلوا ذكرهــا عنــد تدوين أسماء قلاعهم التي أحصوها في خريطتهم الكبرى لمدينة القاهرة، وهي القلاع التي ذكرناها واحدةً واحدة نقلاً عنهم، فلم يبق بعد ذلك مجال لقائــل أن يقول سوى إن هذه القلعة التي نحن بصددها هي من آثار محمد علي كما نص

عليه الرجبي والجبرتي في أقوالهما التي سردناها من قبل، وعززهما الرحالة الفرنسي الماريشال مارمون بقوله القاطع ونصه الساطع، وأنها ليست لها أدنى صلة ببونابرت لأنها ليست لها أدنى أثر، لا في مؤلفاتهم ولا في خرائطهم، وما ذلك إلا لكونها حدثت بعد جلائهم عن مصر، أي في زمن العزيز محمد علي باشا رأس العائلة الملكية الجليلة.

لذلك نراها مرسومة على الخرائط التي أنشئت بعد ذلك إلى هذا العهد، كما نرى فيها طريقها الذي وصفه الرجبي، وهو لا يزال موجودًا إلى الآن في الطبيعة، وظاهرًا للعيان، ومرسومًا على الخرائط الموضوعة بعد الاحتلال الفرنسي، فثبت حينئذ بالنص الصريح، وبالبرهان الذي لا ينقض أن هذه القلعة قد أنشأها الخالد الذكر المغفور له محمد علي باشا لحماية قلعة صلاح الدين من هجوم يطرأ عليها من جهة الصحراء .. وأما الفرنسيون، فلم يكن يعنيهم هذا الأمر؛ إذ إنهم كانوا يقمعون الفتن التي تحدث داخل القاهرة، فلم تكن لهم حاجة عسكرية مطلقًا لإقامة القلعة التي هي موضوع الكلام، ففي قلعة صلاح الدين ما يُغنيهم ألف مرة عنها، ولذلك أقاموا الأبراج التي أشرنا إلى أسمائها مبتدئين من قلعة الجبل - قلعة صلاح الدين - ، ومتجهين بها على دائرة القاهرة، ومن الشرق إلى الشمال حتى مسجد السلطان «الظاهر بيبرس» الذي جعلوه «قلعة»، واتخذوا منارته برجًا، فصار يعرف بـ «قلعة الظاهر».

قلعة محمد علي والباعث الذي دعاه إلى بنائها

لما وصلت جنود الأكراد (الدلاة) مصر، لتحل محل الألبانيين وقائدهم محمد علي باشا عاثت في الأرض فسادًا، فقام الأهالي في وجه أحمد خور شيد باشا

والي القاهرة وقتئذ؛ لأنه سبب حضورهم، وطلبوا من محمد علي أن يحميهم ويكون الوالي عليهم، فقبل ذلك، وشن الغارة على خورشيد باشا، وكان معتصمًا بقلعة صلاح الدين، فحاصر محمد علي القلعة، وأطلق عليها المدافع إطلاقا ذريعًا، وذلك في صفر سنة ١٢٢٠هـ / مايو سنة ١٨٠٥م.

وقد عرفنا العلامة المؤرخ الجبرتي المواضع التي حاصره منها، فقال في جزء ٣ صفحة ٣٣٠ طبع بولاق ما نصه:

.. فأرسل محمد علي باشا عساكره في جهات الرميلة (ميدان صلاح الدين الآن)، والحطابة والطرق النفاذة مثل باب القرافة، والحصرية، وطريق الصليبة، وناحية بيت آقبردي، وجلسوا بالمحمودية، والسلطان حسن، وعملوا متاريس في تلك الجهات، وذلك في ١٩ صفر سنة ١٢٢٠هـ، ومنعوا من يطلع ومن ينزل من القلعة، وأغلق أهل القلعة الأبواب، ووقفوا على الأسوار، يُبكِّت بعضهم بعضًا بالكلام ويترامون بالبنادق، وصعدوا على منارة السلطان حسن يرمون منها إلى القلعة.

ومن المواضع الهامة التي حاصر منها محمد علي القلعة- لشدَّة الضغط على خورشيد باشا- قمة جبل المقطم المشرفة على القلعة (قلعة صلاح الدين)، قال العلامة الجبرتي في جزء ٣ صفحة ٢٣٢ ما نصه.

« وجمعوا الفَعَلة والعربجية، وشرعوا في طلوع طائفة من العسكر، والعرب وغيرهم إلى الجبل، وأصعدوا مدافع، ورتبوا عدَّة جِمال لنقل الاحتياجات والخبز، وروايا الماء تطلع وتنزل في كل يوم مرتين، وطلع إليهم الكثير من باعة الخبز والكعك والقهاوي وغير ذلك».

فلو كان للقلعة المنسوبة خطأ إلى نابليون وجود وقت هذا الحصار، لذكرها ضمن المواقع التي دونها، كما ذكر جامعي المحمودية والسلطان حسن، فكان من باب أولى ذكر موضع حربي هام كهذا.

وقد كرر العلامة الجبرتي ذكر هذا الموضع في صفحة ٣٣٤ من هذا الجزء في حوادث ربيع الأول سنة ١٢٢٠هـ، ولم يشر إليه بكلمة، قال:

« وفي كل ليلة يطلع إلى الجبل أربعة عشر جملاً تحمل قِرب الماء، على كل بعير أربع قرب، وستة أقفاص خبز على ثلاثة جمال، نقلتين في كل يوم، وأصعدوا جبخانة وجللاً وقنابر، وضربوا عليهم في ذلك ضربًا قليلاً، واستمر ذلك ليلة الثلاثاء ويوم الثلاثاء، فأكثروا الرمي، وسقطت قنابر وجلل في عدة أماكن».

مع أن العلامة الجبرتي عين قلعة أخرى للفرنسيين في ذكر هذه الحوادث بقنطرة الليمون – الموجودة محلها الآن كوبرى الليمون بميدان باب الحديد – فقال في نفس حوادث ربيع الأول سنة ١٢٢٠هـ جزء ٣ صفحة ٣٣٤ ما نصه:

« وفي يوم الأحد أرسل كتخدا **محمد علي باشا إلى السيد عمر**، وأشار عليه بإرسال العتّالين والشيالين إلى ناحية قلعة الفرنساوي التي بقنطرة الليمون، لرفع المدفع الكبير الذي هناك، وأرسلوا أشخاصًا من الإنكليز يتقيدون بذلك، فجمعوا الرجال والأبقار وذهبوا إلى هناك وأحضروه، وأخرجوه من باب البرقية (المعروف الآن بـ«الغريب») يريدون وضعه عند باب الوزير، حيث مجرى السيل، ليرموا به على برج القلعة، واستمروا في جرّه يومين».

فلم يغفل العلامة الجبرتي ذكر المدفع ولا المكان الذي جلب منه، ولا الطريق الذي سار فيه، ولا الزمن الذي استغرقه، ولا المكان الذي وُضع فيه، مع أن موضع جبل المقطم الذي ضربوا منه ومكثوا به مدة طويلة ذكره غير مرة فيما تقدم، وعينه كثيرًا، فقال في موضع آخر من الجزء الثالث صفحة ٣٣٥ ما نصه:

«نصبوا المدفع المذكور وضربوا به، وضربوا أيضًا من أعلى الجبل»

وقال أيضًا في هذه الصفحة: « وكذلك من بالجبل ومن بالذنجزية يضربون على القلعة المدافع والصواريخ».

وقال في هذه الصفحة أيضًا: «وصار الضرب من الجبل على القلعة بالبمب والمدافع والصواريخ».

وممَّا يثبت أن الموضع الذي اختاره جيش محمد علي لضرب قلعة صلاح الدين، وكرر ذكره العلامة الجبرتي، هو نفس المكان الذي اختاره محمد علي باشا ليقيم به قلعته كما نراها الآن؛ لأنها مشرفة على القلعة من جهة باب الجبل.. وقد قال العلامة الجبرتي في حوادث ربيع الأول سنة ١٢٢٠هـ صفحة ٣٣٤ جزء ٣ ما نصه:

« وفي ليلة السبت حضر جماعة من أهل الأطراف ليلاً، وحرقوا باب الجبل، وأوقدوا فيه النار، فظن أهل الجبل أن أهل القلعة يريدون الخروج، فضربوا عليهم مدافع، فتنبه من بالقلعة، وأسرعوا إلى جهة باب الجبل، وضربوا بالرصاص، فلما تحقق من بالجبل القضية، رموا عليهم أيضًا، وتسامع الناس كثرة ضرب الرصاص فلم يعلموا الحقيقة، ورجع من أتى إلى الباب من غير طائع، فلما طلع النهار ظهر الأمر».

فيتبين من هذه العبارة أن جنود محمد علي - التي حاصرت خورشيد باشا بقلعة صلاح الدين - كانوا بقمة المقطم من الجهة المقابلة لباب هذه القلعة المعروف بباب الجبل، المسمى به الشارع الموجود الآن، وهو يبتدئ من مسجد السلطان الملك الأشرف« قنصوه الغوري» المشيد سنة ٩١٥ هـ، وفوق هذه القمة العالية شيد محمد علي قلعته فيما بعد، لموقعها الحربي الهام، فلو كان لها وجود أيام هذا الحصار لذكرها العلامة الجبرتي، الذي لم يغفل الإشارة إلى نقل المدفع الكبير الذي كان موجودًا بقلعة بونابرت بقنطرة الليمون التي مرَّ ذكرها، وإنما كانت بنايتها من سنة ١٢٢٤ - ١٢٢٥ هـ (١٨٠٩ - ١٨١٠م)، أي أنها ظهرت للوجود بعد مرور أربع سنوات على حصار جنود محمد علي لخورشيد باشا، كما عرَّفنا العلامة الجبرتي، فقال في صفحة ٩٩ جزء ٤ ما نصه:

« وفي ٢٣ رجب سنة ١٢٢٤ هـ نادى نادي المعمار على أرباب الأشغال من البنائين والحجارين والفَعَلة بألاَّ يشتغلوا في عمارة أحد من الناس، كائنًا من كان، وأن يجتمع الجميع في عمارة الباشا بناحية الجبل».

وقال في صفحة ١٠٨ من هذا الجزء مشيرًا إلى الطريق الموصل لهذه القلعة: « في المحرم سنة ١٢٢٥ هـ طلب **الباشا** تمهيد الطريق الموصلة من القلعة إلى الزلاقة التي أنشأها طريقًا يصعد منها إلى الجبل المقطم السابق ذكرها».

قلعة محمد علي والاستحكامات التي شيدها

ولم تقتصر همة **محمد علي** على تشييد هذه القلعة، بل له من الأعمال العسكرية التي أوجدها، والاستحكامات العديدة التي شيدها بأنحاء مصر، تحت مراقبة المهندس الفرنسي **المسيو جليس بك** رئيس مهندسي الاستحكامات وقتئذ، ما جعل البلاد في منعة كافية لمقاومة من يقصدها بسوء، حتى عُدَّ من كبار المصلحين - على قلَّة عددهم، وبخل الزمان بأمثالهم - لذلك يقابل بالقبول ما مدحه به **السير مري** في مذكراته عن حياة **محمد علي** إذ يقول: «إن العالم الإسلامي منذ فناء دولة العرب الزاهرة من بلاد الأندلس، لم يظهر فيه حاكم يضارعه في أعماله وصفاته، فمثله مثل صلاح الدين في عدله وتسامحه الديني».

وإنا نثبت هنا بيانًا لتلك الاستحكامات التي شيدها **محمد علي**، نقلاً عن كتاب « حقائق الأخبار عن دول البحار» لحضرة صاحب السعادة **إسماعيل سرهنك باشا** جزء ٢ صفحة ٢٥٨ ونصه:

« قد عثرت بين أوراق قديمة من أوراق المرحوم حسن باشا الإسكندراني مدير دار الصناعة في سنة ١٢٦٤ هـ على كشف مبين لتلك الاستحكامات، وما بها من المدافع والذخائر، ولفائدته أدرجته هنا كما ترى:

أسماء الطوابي	مدافع	أهوان	جبخانة	أسماء الطوابي	مدافع	أهوان	جبخانة
استحكامات الاسكندرية				استحكامات «أبو قير»			
طابية الفنار	٥٧	٦	٢	قلعة «أبو قير»	٤٨	٣	٣
طابية الفنار الصغيرة	١	–	١	طابية كوم الشوشة	٤٧	٣	١
طابية التراب	٦١	١٢	٣	طابية العجوز	٢٤	٢	١
طابية الإسبتالية الجديدة	١٣	١٠	١	طابية السد نمرة ١	١٠	–	١
طابية القديمة	٢٥	–	١	طابية السد نمرة ٢	١٠	–	١
طابية الأطة	٧٥	٧	٢	طابية السد نمرة ٣	١٠	–	١
طابية قلعة برج الظفر	١١	٦	١	طابية السد نمرة ٤	١٠	–	١
طابية ظهر منزل الفرنسيس	٦	٦	١	استحكامات رشيد :			
طابية المفحمة	٨	–	١	طابية التني	٦	–	١
طابية مسلة فرعون	٩	–	١	طابية العباسي	٦	–	١
طابية قبور اليهود القديمة	١٠	–	١	طابية الطواجنية	٥	–	
طابية قبور اليهود الجديدة	٢٠	–	١	طابية المنزلاوي	٣	–	–
طابية برج السلسلة	١٨	١	١	طابية محل الشركة	١	–	–
طابية باب شرقي	٦	–	–	برج رشيد	١٤	–	١
طابية كوم الناظورة	١٠	١	١	قلعة البوغاز	١٨	–	١
طابية الدخيلة	٣	–	١	الطابية الشرقية	١٠	–	١
طابية السلمية	٢٠	٢	١	الطابية الغربية	١٠	–	١
طابية المكس	٤٠	٩	١	استحكامات البرلس:		–	
طابية القمرية	٩	١	١	قلعة البرلس	٦	–	١
طابية أم قبيبة	٥٦	٤	٢	استحكامات دمياط		–	
طابية الملاحة القديمة	١٤	١	١	القلعة القديمة	٢٠	–	١
طابية الملاحة الجديدة	٣٤	١	١	الطابية الشرقية	١٠	–	١
طابية صالح أغا	١٣	–	٢	الطابية الغربية	١٠	–	١
طابية باب سدرة	٨	–	١				
طابية كوم الدماس	٩	٢	١				

وفوق ذلك فلا ينكر أحد أن ساكن الجنان المغفور له محمد علي باشا هو الذي نهض بالبلاد، وجعلها في صف الأمم الراقية، فقد أنشأ الطرق وشيد الحصون، وحفر الترع وأصلح الزراعة وأسس القناطر، وبنى المعامل، وأوجد دور الصناعة، وأقام المدارس الابتدائية والثانوية والعالية، واستحضر إليها كبار الأساتذة الغربيين لنشر العلوم الحديثة بين أبناء رعيته، وأوفد البعوث العلمية إلى أوروبا لتعود مزودة بعلومها ومعارفها وأسرار تقدمها.

هذا ما أردنا بيانه، ولعل فيه الشاهد المقنع لأولئك الذين تعوَّدوا المكابرة، وعساهم بعد ذلك أن يثوبوا إلى الصواب، وينزعوا عن وهمهم القديم؛ فإن الرجوع إلى الحق مَحمدة، والمضي في الباطل مَنقصة، لا تبوء إلا بخذلان من الله.

وها نحن أولاء بحمده تعالى، قد وفينا البحث حقه بما وصلت إليه طاقتنا، وانتهى إليه وسعنا، والله ولي الهداية والتوفيق.

محمد عبدالجواد الأصمعي

قلعة محمد علي وأقوال الصحف والمجلات

وما كاد يظهر هذا البحث التاريخي الأثري حتى تناقلته جميـــع الصـــحف العربية والمجلات، وكذا الصحف الإفرنجية، وكتبت عنه كثيرًا، وقد أثبتنا في صفحات هذا الكتاب بعض نماذج مما قالته حرفيًّا، نقلناه عنها تخليدًا لها وحفظًا لذكرها.. وإليك بيانها:

ومما يستحق الذكر في هذا المقام تعليق جريدة الأهرام عن هذا البحث ونصه: « ..وقد استنتج حضرته من ذلك كله أن هذه القلعة نُسبت خطــأ إلى نابليون، وأن الواجب يقضي بتسميتها **قلعة محمد علي**، وهي نتيجــة خالف فيها جميع من سبقوه من المؤرخين الذين درسوا تاريخ هذه القلعــة ونسبوها إلى نابليون».

ولما كان هذا الموضوع من المسائل التاريخية التـــي تســـتوجب الاهتمـــام بسطناها على صفحات الأهرام ليطَّلع الجميع على هذا الرأي الجديد، ويُبدوا ما يتسنى لهم من الملاحظات التي تؤيد هذا الرأي أو تنفيه، ونأمل ألا تغفله لجنة الآثار العربية، بل تعتني به وتعلن رأيها فيه..

ونشرت مجلة المقتطف بعدد مارس سنة ١٩١٨م هـــذا البحـــث مشـــفوعًا بصورتين شمسيتين، وعلقت عليه بما نصه:

«وقد صور مؤلف هذه الرسالة صورة القلعة، وصورة الطريق الموصـــل إليها وفيها صورته، فنقلناهما عنه شاكرين همته على هذا التحقيق التـــاريخي الجليل، وحبَّذا لو اقتدى به كثيرون في تحقيق القضايا والأخبار التي تؤخذ عادة بالتسليم والتقليد من غير تحقيق ولا بحث مطلقًا».

وأشارت المجلة السلفية إلى هذا البحث أيضًا بعدد فبراير سنة ١٩١٨م.

أما الصحف الإفرنجية التي ترجمت هذا البحث أو أشارت إليه فنذكر منها ما أمكننا العثور عليه، **فمن الصحف الفرنسية** جريدة «**البورص إيچبسيان**» بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٩١٨م، وبتاريخ ١٦و ٢١ مارس سنة ١٩١٨م، و«**الچورنال دي كير**» بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٩١٨م، و«**لابورس الإسكندرية**» بتاريخ ١٦ فبراير سنة ١٩١٨م، وبتاريخ ٢٠ و٢٣ مارس ١٩١٨م .

ومن الصحف الإنجليزية جريدة «**الجازيت**» بتاريخ ١٤ فبراير سنة ١٩١٨م، و«**الإيچبشيان ميل**» بتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٩١٨م.

قلعة محمد علي ورأي المهندسين الفنيين

ولقد كان لنشر هذا البحث التاريخي الأثري في جميع هذه الصحف أثر كبير في النفوس، فاهتم به عدد من المهندسين الفنيين، فتوجه لفيف منهم مع وفد من رجال العلم والتاريخ وكثيرون من الطلبة والمدرسين بمصاحبتنا إلى هذه القلعة ليبدوا رأيهم الفني في هذه المسألة التاريخية الهامة، وبعد إبداء رأيهم كتبت الصحف العربية والإفرنجية ما صرحوا به، وما قاله الأثري الفاضل/ **يوسف أحمد أفندي** رئيس مفتشي لجنة حفظ الآثار العربية..

فأشارت جريدة «**الأفكار**» الغرّاء بتاريخ ٧ رجب سنة ١٣٣٦ هـ، (١٨ إبريل سنة ١٩١٨م) على هذا التحقيق الفني معترفة بفضل كاتب هذه السطور.

وكتب «**المقطم**» الأغر بتاريخ ١٢ رجب سنة ١٣٣٦ هـ، (٢٣ إبريل سنة ١٩١٨م) ما نصه:

« توجّه بعد عصر ٢١ مارس ١٩١٨ م بعض مهندسي الآثار العربية وحضرة الأثري الفاضل **يوسف أحمد أفندي** رئيس مفتشي لجنة حفظ الآثار، ووفد كبير من رجال العلم والتاريخ، وكثيرون من طلبة المدارس الثانوية والعالية، ولفيف من القسم النظامي بالأزهر، وكثيرون من المدرسين إلى القلعة التي أنشأها بأعلى جبل المقطم المغفور له **محمد علي باشا**، وبعد ما وصلوا إليها وشاهدوها وقف حضرة **الأثري يوسف أحمد أفندي** وطلب أن يقف إلى جانبه حضرة الشيخ **محمد عبد الجواد الأصمعي**، وتلا مُلخص الرسالة التي نشرها الشيخ **عبد الجواد الأصمعي** في تحقيق مُشيِّد هذه القلعة، وعزّز قوله بما قرّره من الوجهة الفنية.. ومما قاله في محاضرته هذه: ..**إن مباني هذه القلعة**

وكرانيشها تركية[1]**، وهي تماثل الشكل الموجود في الباب المتوسط في قلعة صلاح الدين، فهي بلا ريب من آثار محمد علي باشا لا من أعمال نابليون...** وشكر الأستاذ المحقق شكرًا جزيلاً لإظهاره هذه الحقيقة التاريخية بعد البحث الطويل والسعي الكثير، وطلب منه أن يقف منفردًا بجانب باب القلعة مشيرًا بعصاه إلى الكتابة التي كتبت بالطلاء حديثًا على باب القلعة بالعربي والفرنسي ونصها:

قلعة محمد على باشا أسسها سنة ١٢٢٤ - ١٢٢٥ هـ (١٨٠٩-١٨١٠م)، حقق ذلك الشيخ محمد عبد الجواد الأصمعي ووقف الجميع صفوفًا، ثم أخذت صورتهم الفوتوغرافية.

وعسى لجنة حفظ الآثار العربية أن تجعل هذه القلعة ضمن آثارها، وتعدها من الأماكن التي يقصدها الزائرون».

ونشرت مجلة «**المقتطف**» الغرّاء بعددها الصادر في مايو سنة ١٩١٨م، بما لا يخرج عما كتبه «**المقطم**» مشفوعًا بالصورة الشمسية التي صورها حضرة الأستاذ الفني **على يوسف أفندي** المهندس بمصلحة تنظيم القاهرة، وعلقت عليه بقولها:

«ولا يسعنا بعد هذه البراهين التاريخية والفنية، إلا أن نطالب لجنة حفظ الآثار العربية بأن تجعل هذه القلعة بين آثارها، وتعدها من الأماكن التي

---

(١) هذا الرأي الفني جاء مطابقًا لما قاله الماريشال «مارمون» في صفحة ٢٠ بأنها على النسق التركي، وهو يشهد لحضرة الأثري «يوسف أحمد أفندي» برسوخ قدمه في معرفة الآثار وخبرته التامة بدقائقها الفنية.

يقصدها الزائرون من كل البلاد، لاسيما وأن هذا الأثر الفخم من باكورة أعمال ذلك البطل العظيم، الذي خلَّد له التاريخ اسمًا لا يُمحى»

وفوق ذلك فقد جاء في المادة الأولى من قانون الآثار العربية الجديد الذي أقرَّة مجلس الوزراء في جلسة ١٣ إبريل سنة ١٩١٨م ما نصه:

«يُعد أثرًا من آثار العصر العربي كل ثابت أو منقول يرجع عهده إلى المدة المنحصرة بين فتح العرب لمصر وبين وفاة **محمد علي**، ممًا له قيمة فنية أو تاريخية أو أثرية باعتباره مظهرًا من مظاهر الحضارة الإسلامية أو الحضارات المختلفة التي قامت على سواحل البحر الأبيض المتوسط وكانت لها صلة تاريخية بمصر».

ومن الصحف الإفرنجية التي كتبت عن رأي المهندسين الفنيين«**لوچورنال دي كير**» بتاريخ ٢٨ إبريل سنة ١٩١٨م، و«**لابورس القاهرة**» بتاريخ ٩ مايو سنة ١٩١٨م، و«**لابورس الإسكندرية**» بتاريخ ٩ مايو سنة ١٩١٨م، وقد شكرت كاتب هذه السطور شكرًا جزيلاً لحسن اجتهاده وسعة اطلاعه في البحث والتنقيب.

قلعة محمد علي ولجنة حفظ الآثار العربية

وقد طلبنا من لجنة حفظ الآثار العربية تسجيل هذه القلعة وعدها ضمن الآثار العربية ليقصدها الزائرون، فأرسلنا إلى حضرة صاحب المعالي رئيس لجنة حفظ الآثار العربية ووزير الأوقاف خطابًا بتاريخ ٣٠ أبريل سنة ١٩١٨م بشأن ذلك.

وقد عُرض هذا البحث على أعضاء لجنة حفظ الآثار العربية فأقروه بالإجماع، وأرسلت إلينا اللجنة خطابًا بتاريخ ١١ مارس سنة ١٩١٩م رقم

«٦٠٥» تخبرنا فيه بتسجيل هذه القلعة ضمن الآثار العربية باسم قلعة محمد علي تحت رقم «٤٥٥»، وتفيدنا بأنها أصبحت تُعد من آثار العصر العربي الموكول إلى لجنة حفظ الآثار العربية أمر العناية بها.

قلعة محمد علي ومصلحة المساحة المصرية

وقد أرسلنا لجناب مدير عام مصلحة المساحة المصرية المستر« **إل.بي. ولدن**» خطابًا أخبرناه فيه بأننا أطلعنا على لوحة ١-٦-١ مقياس «١/٥٠٠٠» التي طُبعت سنة ١٩١٧ وسنة ١٩١٨م، فوجدنا أن مصلحة المساحة قد أطلقت اسمًا جديدًا لقلعة المقطم فسمتها «طابية نابليون»، مع أن اللوحة التي طبعت سنة ١٩١٠م مقياس «١/٥٠٠٠»، واللوحة التي طبعت سنة ١٩١٢م مقياس «١/٧٥٠٠٠»، واللوحة التي طبعت سنة ١٩١٦م مقياس «١/١٠٠٠٠»، سميت فيها هذه القلعة باسم «قلعة الجبل» فقط، وأخبرناه باهتدائنا إلى صحة تسميتها ونسبتها إلى **محمد علي** بعد طول البحث وكثرة التنقيب، وأرسلنا إليه نسخة من هذا البحث مشفوعًا بالخرائط المذكورة، ورجونا منه الاطلاع عليها وعلى هذا البحث التاريخي، وتصحيح الخطأ الذي وقعت فيه مصلحة المساحة في جميع الخرائط التي طُبعت، وتلافي ذلك في الطبعات الجديدة، وحيث إن الباني لها هو ساكن الجنان المغفور له **محمد علي باشا**، ومصلحة المساحة تتوخى الحقيقة وتتحرّى الصدق فيجب نسبتها إليه.. فورد إلينا من هذه المصلحة الرد الذي نثبت صورته الشمسية فيما يلي بعد إثبات صور الخرائط الشمسية التي تؤيد رأينا وتثبت الخطأ الذي وقعت فيه مصلحة المساحة.

قلعة محمد علي وحضرة ملك مصر

ولما سطع نور هذا البحث التاريخي الأثري في بدء عهد الملك فـؤاد الأول وارتقائه عرش المملكة المصرية، رأينا أن نُتوِّج هـذا البحـث بتـاج المجـد والفخار، فبادرنا بتقديمه لسدته العلية في كتاب جمع بين دفتيه مهارة المصري في الرسم والتصوير، وإبداعه في النقش والتلوين، وجودته في الخط، وجمـال ذوقة في التجليد.

ويقع هذا الكتاب في ست وعشرين صـفحة، طـول الصـفحة «٣٥×٢٥» سنتيمترًا، وكل صفحة مُحلاَّة بإطار يخالف الذي قبله في الزخارف المتنوعـة الأشكال والنقوش المختلفة الألوان، ممَّا يشهد للرسام المصري بابتداع أفانين لا تُبارى في الجودة والإحكام، فأصبحت المفرد العلم في الجمال والرّواء.

ولئن وقع عليها نظر إنسان ليحار في أيها أعجب في الصنعة وأبـدع فـي الشكل، هل لتلك الرسومات التي جاءت آية من آيات المصري في الـذكاء؟ أم لحسن الخط الذي كتب بعدَّة أشكال مختلفة؟ أم لهذا التجليد الـذي هـو المَثـل الأعلى لصناعة المصري وتفوقه في الإبداع؟.. فمن مميزات جلدة هذا الكتاب أن ظاهرها مُحلًّى بزخارف عربية أنيقة، مُفصَّلة تفصيلاً دقيقًا، ومذهبة تذهيبًا متقنًا، وفي أولها رسم التاج الملكي بارزًا بالذهب الإبريز، وفي آخـرة رسـم العلم المصري بالذهب الإبريز أيضًا.

وقد صدرناه بصورة المغفور له ساكن الجنان محمد علـي باشـا الكبيـر مرسومة بريشة اليد، وكتبنا تحتها هذين البيتين:

هَذَا مُحَمَّدٌ.. كَمْ بَنَى مِنْ قَلْعَةٍ لِيَذُودَ عَنْهَا مَا نَخَافُ مِنَ الرَّدَى

شَادَ الْعَدَالَةِ وَالْعُلُومِ بِأَرْضِنَا وَبَنَى الْحُصُونَ لِصَوْنِ مَا قَدْ شُيِّدَا

وبعدها صورة الملك فؤاد الأول مرسومة بريشة اليد أيضًا، وكتبنا تحتها هذين البيتين:

مَلِيكُ مِصْرَ فُؤَادُ وَرِيثُ عَرْشِ مُحَمَّدْ

أَعَادَ مَجْدَ أَبِيهِ لِلنِّيلِ وَالْعَوْدُ أَحْمَدْ

ولما رفعنا إلى جلالته - أدام الله ملكه - شرَّفه بحسن القبول، وحاز رضاء جلالته، وحفظه بمكتبته الخاصة.

قلعة محمد علي والجامعة المصرية وأقوال الكتاب والشعراء

وقد أرسل إلينا كثيرون من مشهوري الكُتاب المعروفين وفحول الشعراء المعدودين عبارات الشكر وكلمات الثناء لمناسبة إظهارنا هذه الحقيقة التاريخية، وفي أولهم «**الجامعة المصرية**» التي بعثت إلينا بخطاب تاريخه ١١ إبريل سنة ١٩١٨م رقم «٢٦٠» تكلِّفنا فيه إرسال هذا البحث التاريخي إليها؛ وذلك لتعميم فائدته بوضعه تحت أنظار أساتذة الجامعة وطلبتها.

فأرسلنا إلى حضرة صاحب العزَّة محمد وجيه بك سكرتير الجامعة المصرية وقتئذ، هذا الرد بتاريخ ١٤ إبريل سنة ١٩١٨م، ونصه:

حضرة صاحب العزة المحترم سكرتير الجامعة المصرية/

ردًّا على إفادة عزتكم الواردة لي بتاريخ ١١ إبريل سنة ١٩١٨م رقم ٢٦٠ بخصوص إرسال بعض نسخ من الرسالة التي نشرتها بعنوان « **قلعة محمد**

علي لا قلعة نابليون» لحفظها بمكتبة الجامعة، أعرفكم أنه من مزيد الأسف لم يكن عندي منها إلا نسخة خاصة لي وترجمتها بالفرنسية، فرأيت أن أؤثر الجامعة على شخصي إجابة لطلبكم، ولذا بادرت بإرسالهما مشفوعتين بكل شكر واحترام، وبعد تمام طبع «**رحلة الغابة المتحجرة**» التي ستُدون بها هذه النشرة أتشرف بتقديم ما طلبتم، وتقبلوا مني فائق الاحترام.

محمد عبد الجواد الأصمعي

فجاءنا من عزَّته الرَّد الآتي بتاريخ ١٥ ابريل سنة ١٩١٨م رقم ٢٧٢ ونصه:«أتشرف بأن أقدم لحضرتكم باسم دولة رئيس مجلس إدارة الجامعة المصرية مزيد شكري على الكتب المبيَّنة أدناه، والتي تكرمتم بها على مكتبتنا، وأرجوكم قبول فائق احتراماتي».

سكرتير الجامعة

محمد وجيه

وأرسل إلينا حضرة الأثري الفاضل يوسف أحمد أفندي مفتش لجنة حفظ الآثار العربية خطابًا بتاريخ ٦ فبراير سنة ١٩١٨م جاء فيه بعد الديباجة ما نصه: «قد استلمت أمس تحقيقاتكم عن القلعة، والحق يقال: إنها أزالت عن الآثار سجاف الأوهام».

يوسف أحمد

وأرسل إلينا أمير البيان - حضرة الكاتب البليغ الشهير - **السيد مصطفى لطفي المنفلوطي** المفتش بوزارة المعارف العمومية خطاباً بتاريخ ٢٨ فبراير

سنة ١٩١٩م، يشكر فيه عنايتنا لتحقيق قلعة محمد علي، وهـذا نصُّه بعد الديباجة:

«كأن الناس قد أكبروا أن ينسبوا أثرًا شرقيًّا عظيمًا في بلد شرقي إلى عاهل شرقي، فنسبوه إلى ملك أوربي لا شأن له فيه، وكذلك إذا ساء حظ البلد، وساء رأي الناس فيه، سلبوه كل شيء، حتى تاريخه وماضيه!

لذلك شكرت لك أيها الباحث الفاضل تلك اليد البيضاء التي أسديتها إلى الأمَّة في كشف تلك الحقيقة الغامضة، وإدلائك بها إلى الناس..

ولو كنت ممن يعتقدون بعظمة القواد، ويُقيمون لعملهم وزنًا لسمَّيتك **الفاتح العظيم**؛ لأنك رددت إلى وطنك قلعته التي غلبه الأجنبي عليها برهة من الزمان، فأصبحت تسمي **قلعة محمد علي** كما كانت، بعد أن سميت أعوامًا طوالاً قلعة نابليون، ولكني أسميك خادم التاريخ، والخادم في دولة العلم خير من القائد في دولة السيف، أكثر الله من أمثالك العاملين المجدين، وقيض للشرق من يرد إليه جميع حقوقه المسلوبة منه، إن شاء الله تعالى».

مصطفى لطفي المنفلوطي

وأرسل إلينا حضرة الباحث المحترم الأستاذ **محمد نوفل أفندي** - أستاذ التاريخ بالمدرسة الخديوية وقتئذ- خطابًا بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩١٩م هذا نصُّه:

قلعة محمد علي لا قلعة نابليون

«إن التاريخ إيراد أخبار سلفت، ووقائع ومبان وآثار تقادم عليها العهد، وهي بين ظهرانينا تشهد لنا بعظمة الماضي، وتمثل لنا العبر والعظات، ولا يكون التاريخ صحيحًا إلا بعد البحث والتنقيب ونبذ ما لا يقبله العقل، وتوضيح ما

يعتريه الشك والغموض وإمعان النظر فيه وإعمال الفكر للوصول إلى الحلقة المفقودة التي تربط الماضي بالحاضر..

مَن من الناس كان يدور في خلده أن حقيقة تاريخية وأثرًا عظيمًا كهذه القلعة ظلَّت مختفية عن العقول، لا يدركها البحث ولا تزول عنها الحجب الكثيفة التي لا يجسر على كشفها إلا باحث وراء الحق؟

هذا الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي قد أظهر كفاءة نادرة وهمَّة قعساء في كشف النقاب عن هذه الحقيقة التاريخية الهامة، وأهداها لأمته المصرية قائلاً: هاؤم **قلعة محمد علي**.. مؤسس مجد بلادكم، ورافع صروح فخارها، قد لعبت بها أيدي المؤرخين، وسلبوها حظها ونسبوها لـ«نابليون»، وجاء الخلف فقبلها قضية مسلمة!

فلا عجب أن قامت في مصر ضجة الناس، واشرأبت أعناقهم لقول الأستاذ الأصمعي، إن هذه إلا بضاعتنا ردت إلينا نحن المصريين، فإنا لنؤثر أن نحافظ على ثروتنا التاريخية، ونعمل على صيانتها، من أن تعبث بها أيدي الطامعين.. فالتاريخ والمشتغلون به يرحبون بالأستاذ الأصمعي، ويشكرون له هذه الهمة».

محمد نوفل

أستاذ التاريخ بالمدرسة الخديوية

وأرسل إلينا حضرة الباحث المدقق الفاضل **توفيق إسكاروس** أفندي رئيس القسم الإفرنجي بدار الكتب المصرية ما نصُّه:

سَرَى الاعتقاد بالوهم أن ليس في الشرق رجال، وإذا وجد منهم فليس بينهم من يُعتمد عليه، أو يقوم بما يضاهي عمل الإفرنجي.

رسخت تلك العقيدة الوهمية حتى أكبر الشرقي ذلك في نفسه، فإذا مـرض لا يضع ثقته في غير طبيب «متقبع»، وإذا أراد قضاء حاجة له لا يكلف بها غير إفرنجي، وكأنَّ سر النبوغ والعبقرية لا يحل في شخص لإتمام جليل الفعال إلا تحت القبعة والنظارة، ويقيني أن ذلك متمكن من النفوس، على أثـر ضـعف العزيمة، والوهن في أبناء الشرق زمنًا ليس بالقليل.

على هذا النمط ظنَّ الناس أن الأعمال العظيمة لا يقوم بها إلا الإفرنج، ولعلَّ ذلك كان سببًا في تغلُّب الظن بأن القلعة التي على قمة جبل المقطم هـي مـن صنع نابليون - ومن كطاغية الفرنسيس في شـهرته وقدرتـه وغزواتـه؟ - وعززوا ذلك الفكر من غير تمحيص إلى وجود نابليون في مصر، وأنها كانت ألزم لخططه الحربية من غيرها من المسائل، وكان لرجال حملته أثرًا علميًـا لازال الناس يستشهدون به إلى اليوم.

على أن الحقيقة التاريخية غير الظن والعقيدة الوهمية؛ فمن يتصدى لرد الحق إلى نصابه جدير بالإكبار والإعجاب، وكذلك يكون إكبارنا وإعجابنا **بالأسـتاذ الشيخ محمد عبد الجواد الأصمعي**، حيث جد مُنقِّـبًا باحثًـا حتـى اهتـدى بالأسانيد التاريخية القوية إلى أن هذه القلعة إنما هي من صنع عزيـز مصـر ومُجدِّد حياتها المغفور له **محمد علي باشا**.

فليهنأ الحق والتاريخ، بتلك الحقيقة التاريخية الجلية التي أسداها الأسـتاذ إلـى العلم.

توفيق إسكاروس

وأرسل إلينا شيخ الأدباء، وأستاذ الشعراء، فقيد العلم والأدب المرحوم **حفني ناصف** بك هذه الأبيات البليغة لتكتب على باب القلعة ونصُّها:

نَسَبَ الرُّوَاةُ إلى الفَـرَنس غَرِيبَـةً   لَـمْ يَرْوِهَـا التَّـارِيخُ فِـي أدْوَارِهِ

ذَكَـرُوا لِنَـابُلْيُونَ مَـا لَـمْ يَبْنِـهِ ... وَالْحَـقُّ لاَ يَخْفَـى عَلَـى أَنْصَـارِهِ

فَالْجَـامِعُ الأَسْـمَى بِنَـاءُ مُحَمَّـدٍ ... وَكَذَاكَ هَـذَا الْحِصْـنُ مِـنْ آثَـارِهِ

حفني ناصف.

وأرسل إلينا حضرة الأديب الفاضل، والشاعر المطبوع **محمود عماد أفندي** الموظف بوزارة الأوقاف، هذه الأبيات الممتعة، ونصُّها:

قُـلْ لِلْمُعظّـمِ غيرِنـا لا تبعـد ... ليسـت لنَـابليُونَ بَـل لِمُحمَّـدِ

فَعَلامَ تَسْـخَرُ بالقَرِيـبِ وَمَجـدِهِ ... وَإلاَمَ تَلْـهَجُ بِالغَرِيـبِ المُبعَـدِ

مَا كَانَ غَير عَزيزِ مِصـرَ يُشـيدُها ... حِصنًا لِمصر مِـنَ الهَـوَانِ المرصَـدِ

القَـومُ لَمَّـا رَاقَهُـم مَـا رَاقَهُـم ... مِن بيتِنَـا وَقَفُـوا إليـهِ بِمَرصَـدِ

حَتَّى إذا سَرَقوا الأثَـاثَ تَرَاجَعُـوا ... يَتَـآمرُون عَلَـى الجِـدَارِ المُسـند

لَمْ تَكفِهِم في سَـطوِهِم أيـديهمو ... فَسَـطَوا علينَـا بِاللسَـانِ وَباليَـدِ

❀❀❀❀

مَازَالَ لاسْـمِ الأَصْـمَعِيِّ شَـمَائِلٌ ... فِينَـا بِـرَغْمِ زَمَانِـهِ المُتجَـدِّدِ

بِالأَمسِ نَاضَلَ جَاهِدًا عَـن مَّجـدِنَا ... وَاليَومَ عَادَ.. فَهَل يَعُودُ مَعَ الْغَـدِ؟

محمود عماد

وأرسل إلينا الأديب الفاضل والشاعر المجيد **الشـيخ محمـد إبـراهيم الجزيري** أحد خريجي القسم العالي بمدرسة القضاء الشـرعي، والحـائز لشهادة «الليسانس» في الآداب من الجامعة المصرية، وصـاحب مجلـة القضاء الشرعي قصيدة غرَّاء، وهي:

انظُر لصَفْحَة وَجهِهَــا الْمُتصَــدّ ع، كَجَبِين فَــانٍ بِالْمَشِــيبِ مُوشَّــعِ
لَمْ يَعْفِهَا صَــرْفُ الزَّمَــانِ وَإِنَّمَــا أسيت عَلَى نَسَبٍ أغَــرٌ مُضــيعِ.
عُزِيَتْ إلى النَّسَبِ الدَّخِيل تَخرُّصًا، وَالسِّرُّ ثَاوٍ فِي حَنَايَــا الأضْــلُعِ.
فَلَوْ أَنَّهَا اسْطَاعَتْ لِسَــانًا نَاطِقًــا، صَدَعَت بقَولٍ لِلحَقِيقَــةِ مُنصــعِ.

زَعَمُوا لنَابُليونَ رَصْــفَ صُــخُورِهَا فِي كُلِّ نَــادٍ يُخطُبُــونَ وَمجمَــعِ
فَاسْتَنْهَضُوا مَلَكَينِ فِي بَطْنِ الثَّــرَي جَذْلاَن مُغتبطًــا بقلعَــةِ مُوجــعِ
لاَ تَرجُمُوا بالغَيبِ فِيهَــا وَاعلَمُــوا أيَّ الْمُلوكِ بقَبْــرِهِ لَــمْ يَهْجَــعِ؟
أمُحمَّـــدٌ مِـــلءُ المـــآقي قـــرَّة، وَاهْنَأ مَنَامًا فِــي وَثِــيرِ المَضْــجَعِ
رَدَّ الْفِرِندَ لغِمدِه، والبَــدْرُ أشْــرَقَ وَجْهُــهُ خَلْــفَ الْعَمَــاء الْمُقَشَّــعِ

مَا مَجْهَل ضَــلَّ النــاس بِظَلاَمِــه إلاَّ أضَــاءَ بِفِكــرٍ حُــرٌ أصْــمَعِ
كَالقَلعَةِ العَصْــمَاءِ غُيِّــبَ سِــرُّهَا، دُونَ الوَرَى لَولاَ يرَاعُ الأَصْــمَعِي
أَمِ الْحُصُونُ وَقَدْ عَهِــدتُّ سَــمِيةُ يَأوِى إلَى وَكرِ الطُّيُــورِ السُّــجَّعِ
ذَا يَطْلُبُ الأبيَــاتَ يَحفَظُهَــا، وذَا يَقتَــافُ آثَــارَ القِــلاعِ الضّــيَّعِ

يا عَالِم الآثَــارِ أبْــرَدتَّ الصَّــدَى من كُــلِّ صَــبٍّ بِالحَقِيقَــةِ مُولَــعِ
وَشَــفيتَ للتَّــاريخِ حَــرَّى غُلّــة ، لَــوْلاَك ظَلَّــت حِقبَــةٌ لم تُنقَــعِ

وَأفَاضَ بَحْثُكَ فَوقَ حِصْـنِ مُحمَّـدٍ   فَضلَّ السَّحابُ عَلَى الْجَنَابِ الْمُمرَّعِ

فَكَـأنَّ بَانيـهِ يَقـولُ برَمسِـهِ   أنتَ الْمُشيِّدُ لَوْ عَلمتَ لَـهُ مَعِـي

حَسْبُ الحَصَافَةِ وَالنَّبَاهَـةِ منْـكَ رَأ   يُ الشَّيخِ فِي عَزْمِ الْفَتَى الرَّعْـرَعِ

إن كُنتَ في سَنِّ الشَّبَابِ فَلَستَ فِـي   نَادي الْحجا بَـينَ الكهُـولِ بِـإمَّعِ

محمد إبراهيم الجزيري

وأرسل إلينا حضرة الشاعر الكبير المعروف **أحمد نسيم أفنـدي** هـذه الأبيات الرقيقة المعنى الدقيقة المبني:

يَا أصمَعي لَقَدْ بَحَثـتَ مُـدَقِّقًا،   بَحْثَ الأرِيـبِ اللَّـوْذَعِيِّ الأَلْمَعِـي

قَالُوا لنَـابُليُونَ شَـيَّدتَّ قَلْعَـةً   فَقَلَعـتَ عَـينَ الْقَـائِلينَ بِإصْـبَعِ

وَدَحَضتَّ بَاطِلَهُمْ بِـأَبْلَغِ حُجَّـةٍ   وَأريتَ مُخْطِئَهُم صَوَابَ الأصْـمَعِي

فَاكْتُـبْ وَأكِّـدْ أنَّهَـا لُمحمَّـدٍ   وَابْحَث وَجَادِلْ بِالَّتِي هِـيَ وَادْفَـعِ

وَافِقًا -إذَا حَمَى اللّجَاج مُـبرِّزًا   بِالقَلعَـةِ العَلَيَـاءِ- عَـينَ الْمُـدَّعِي

كَادَ الأميرُ يَقُولُ فِيـكَ مَفَـاخِرًا   لَوْ كَانَ لِلأمْوَاتِ صَـوْتُ الْمُسـمَعِ

شَيَّدتَّ بِاسْمِي مَا تَهَـدَّمَ ذِكْـرُهُ   بِيَدِ الدُّعَاةِ فَأنـتَ مُشْـتَرِكٌ مَعِـي

أحمد نسيم

وأرسل إلينا حضرة الأديب الفاضل والشاعر المجيـد **محمـود فـؤاد الجبالي** أفندي الموظف بسكرتارية مجلس الوزراء هذه الأبيات الشائقة:

هِمَمُ الْمُلُوكِ كَثِيرَةٌ وَأجَلُّهَا   مَا كَانَ يَبني الْمُلْكَ أوْ يُعليه

مَن ذَا يُفَاخِرُنَا وَمَجْدُ مُحَمَّدٍ   شَمْسٌ تُضِيءُ لَنَا كَمَجْدِ بَنِيه

وَضَعَ الأَسَاسَ لِمُلْكِهِ وَبَنَاهُ مِنْ   علمٍ فكَانَ الْمَجْدُ مَا يَبْنِيه

مَرَّ الزَّمَانُ عَلَيهِ وَهُوَ مُخَلَّدٌ   يَفنَي الزَّمَانُ وَذِكرُهُ يُبْقِيه

نَسَبُوا لنَابُليُونَ قَلعَتَهُ الَّتِي   هِيَ آيةُ الشَّرْقِيُّ فِي وَادِيه

فَنٌّ تُكَلِّمُكَ الْبَدَائِعُ عِنْدَهُ   عَنْ أصْلِ صَاحِبِهِ وَفَضْلِ ذَوِيه

خَلِّ العدَاةَ الغَاصِبِينَ وَشَرْعَهُم   فَالْعلمُ يُنشَرِ مَا الْعِدا تَطوِيه

وَأعِدْ لَنَا يَا أصْمَعِي زَمَانَنَا   عَهْدٌ تَكَادُ يَدُ الْبَلَى تُخْفِيه

وَأفِضْ عَلَينَا مِنْ بَيَانِكَ إنَّهُ   عَذْبٌ لِمَنْ طَلَبَ الْعُلاَ يَرْوِيه

نَزَّهْتَ قَلبَكَ أنْ يَميلَ مَعَ الْهَوَى   وَالْحَقُّ لاَ يَخْفَى عَلَى أهْلِيه

فَالْمُلْكُ أصْبَحَ بَينَ كَفَّيْ حَازِمٍ   يُعلِي مَنَارَ أرُومِهِ تُنمِّيه

مُلْكُ أبُو الفَارُوقِ فَوقَ سَرِيرِه   وَالتَّاجُ فَوقَ جَبِينِهِ يَحْمِيه

حُلَلُ السَّناءِ تُرى عَلَى جَنَبَاتِهِ   وَالنِّيلُ يَرْتَجِلُ الثَّنَا مِنْ فِيه

لاَ زَالَ رَبُّ الْعَرْشِ تَرْعَى عَيْنُهُ   مُلْكًا لَهُ بِنُفُوسِنَا نَفْدِيه

محمود فؤاد الجبالي

وأرسل إلينا الكاتب المجيد والشاعر المبدع **محمود رمزي نظيم** أفندي هذه الأبيات الرائقة:

يا خَادِمَ التَّارِيخِ جِئتَ بآيَةٍ   مِنْ آيَةٍ آثَارُهَا تَتَجَدَّدُ

نَسَبُوا لنَابُلْيُونَ قَلْعَتَنَا الَّتِي قَدْ شَادَهَا مُحْيِي الْبِلَادِ مُحَمَّدُ

فَكَشَفْتَ غَامِضَ أَمْرِهَا بِعِبَارَةٍ فِيهَا بَيَانُكَ يَا مُحمَّدُ يُحْمَدُ

فَاكْتُبْ فَإِنَّكَ أصمعيُّ زَمَانِهِ وَأعِدْ لَنَا مِنْ مَجْدِنَا مَا يُفْقَدُ

أبو الوفا

محمود رمزي نظيم

وأرسل إلينا حضرة الشاعر الأديب **الشيخ عبدالله إبراهيم حبيب** الموظف بدار الكتب المصرية هذه الأبيات الجزلة:

يَا أصْمَعِيَّ أذَعْتَ رَأيًا صَائِبًا وَجَلَوْتَ عَنْ وَجْهِ الْحَقِيقَةِ غَيهَبًا

وَكَشَفْتَ لِلتَّارِيخِ عَنْ آثَارِهِ لِلَّهِ دَرُّكَ بَاحِثًا ومُنَقِّبًا

لَيسَت لنَابُليُونَ بَلْ هِيَ قَلْعَةٌ لِمُحمَّدٍ وَالصِّدْقُ أسْمَى مَطْلَبَا

إنَّا وَرِثْنَا الْمَجْدَ عَنْ آبَائِنَا وَنَذُودُ عَنْ آثَارِهِ أن تُسْلبَا

عبد الله إبراهيم حبيب

هذا ما سطَّرته أقلام الكتاب المعروفين، وفاضت به قرائح الشعراء المعدودين، مشفوعًا بواجب الشكر لكل منهم، لما خصُّونا به من آيات التشجيع وكلمات التعضيد، مع تقديم اعتذارنا لمن تفضَّلوا علينا بكتاباتهم في هذا الصدد، وضاق نطاق الكتاب عن نشره، إذ ليس لدينا متسع لتدوين كل ما كُتب، لاسيما وأنه خاص بإطرائنا، ونحن نعتقد أن ما قمنا به هو من الفروض الواجبة علينا نحو العلم والتاريخ؛ إذ لا شكر على واجب.

وهنا نُثبت جواب حضرة صاحب العزة الشيخ محمد الخضري بك عن قلعة نابليون بحروفه - قبل إظهار حقيقتها التاريخية - كما أشرنا إلى ذلك في أول مقدمة الكتاب، وتعليق بعض الصحف عليه، ليُظهر للقارئ مقدار اهتمام الشباب الناهض بهذه المسألة التاريخية، وتلهفهم إلى معرفة مُشيِّدها خدمة للحقيقة وللتاريخ.

وإليك بيان ما كتبه:

قلعة نابليون والأستاذ الخضري (١)

تلقينا اليوم الخطاب التالي من حضرة الأستاذ الشيخ محمد الخضري بك.

سيدي المحترم:

السلام عليكم ورحمة الله.. وبعد/

فما كنت أدري قبل اليوم أن من واجبات المُدرس أن يكون مُستعدًا ليُجيب كل من سأله على صفحة جريدة من الجرائد السيارة، لو إنالتني الحكومة أو الجامعة المصرية لقب«مفتي الآثار»، ما كان يلزمني في شرعة الأدب إلا أن أجيب من تفضل علي بكتاب يرسله إلي..

إمَّا أن أقف مُترقِّبًا ما يُكتب من الأسئلة في الجرائد وألزم بالرَّد عليه، وإلا استُهدفت للوم اللائمين ونقد الناقدين، فهذا ما لم أعلمه، فكيف وليس ارتباطي بالآثار المصرية الإسلامية إلا رابطة مُحب للاطلاع، ميَّال إلى معرفة ما تركه لنا الأسلاف، واستعنت على ما أنا بصدده بأستاذ من لجنة الآثار العربية له القدح المعلي في دقائقها الفنية..

---

(١) جريدة الأفكار يوم الجمعة ٢٠ رجب سنة ١٣٣٥ هـ (١١ مايو سنة ١٩١٧م).

سألني سائل -زعم أنه لفيف من الطلاب- عن قلعة نابليون ونشر سؤاله على صفحة من جريدتكم الغراء، فلم أر من الواجب علي - لا رسميًا ولا أدبيًا- أن أجيب على هذا السؤال فسكتت، أفما كان من اللياقة عند ذلك أن يتركني وشأني؟ ويفرض غاية ما يذهب إليه الفكر عند سكوت المسئول عن الجواب وهو جهله به، إنه لم يفعل ذلك، ولكنه ألح واستعمل شتى الأساليب: مرة في جريدتكم، ومرة في غيرها.. أنا لا يضيق صدري عن تحمل ما كتب لومًا أو عتابًا أو شتمًا، بل أسامح وأعفو، ولكن الذي يؤلمني أن تُستعمل الجرائد التي هي لمصلحة الجمهور، وسيلة لإيلام شخص لم يسئ إلى الجمهور.

إن كان يرضي هذا السائل ويريح ضميره أن أعلن له أني أجهل نسبة هذه القلعة إلى من نسبت إليه، ولا أتحقق نسبتها إلى غيره، فأنا أعلن له ذلك فليسجله إن شاء، وليتق الله ربه والسلام.

محمد الخضري

الأفكار: لم نكن نظن يومًا من الأيام، أن سؤال العالم عمًّا يَخفى على الجمهور من المسائل العلمية إساءة له، ولم نكن ندري أيضًا أن إجابة المدرس على سؤال يُلقى عليه في صحيفة من الصحف، يُنقص من واجباته شيئًا، أما وقد أعرب الأستاذ عن رأيه في هذا وذاك، فليكف السائلون عن سؤاله، وليقنعوا بما شاء التفضل به، ولكل رأيه ومذهبه.

قلعة نابليون ورد الأستاذ الخضري[1]

أجاب الأستاذ الخضري بعد صمت طويل على السؤال الذي رفعه إليه فريق من طلبة العلم الذين يتتبعون المباحث التاريخية، ولو ورد هذا الجواب في إبانه لاسترحنا واستراح الأستاذ واستراح القلم، ولم يحتج الأستاذ إذ ذاك إلا لكلمة واحدة، وهي «لا أدري»، ولكن السائلين اضطروا إلى الإلحاح حين تأولوا صمته، ولم يعلموا مراده من السكوت، لأنهم لو قدروا جهله بالجواب، لعُدَّ ذلك رجمًا بالغيب، وضربًا من التكهُّن، واضطر هو بعد حين إلى الإجابة بخطاب توهم وأوهم فيه، أن جميع ما نشر في المسألة، صادر عن واحد أسند لطائفة من الكتاب ما لم يكتبوه، إن بعض الظن إثم.

إن ما كُتب في المسألة ليس – كما توهَّم الأستاذ – سطور سطرها قلم واحد، بل هو موضوع تناولته أقلام الكتاب لمعرفة الحقيقة عن أثر موجود بالقاهرة.

عَلَى رَاسِ الْمُقَطَّمِ لاَحَ يَزْهُو   دَعَائِمُهُ هُنَاكَ بِهَا انْتِظَامُ

وبينهم من لا يعرف الأستاذ، فيتحاملون عليه كما ظن، ولا يسلس قياد وجدانهم لذلك الفرد الذي توهمه الشيخ.

وقال الأستاذ: إن السؤال باغته بواسطة الجرائد، وإن الأسئلة التي ترد في صحف الأخبار لا يلزم المسئول الجواب عليها في شرعه الأدب، كأننا بالشيخ لا يعلم أن الصحف اليومية أصبحت في عالم العلم ودولة الأدب، ومن الرسل والرسائل بين الكتاب والأدباء والمحبين للإفادة، ولا سيما إذا بَعُدت الشُقة،

(١) جريدة الأفكار يوم الجمعة ٢٥ رجب سنة ١٣٣٥ هـ (١١ مايو سنة ١٩١٧م).

ونأت المسافة، وهذه مطارحة **شوقي بك** مع نظرائه الذين لا يزالون يجارونه حتى اليوم على صفحات الجرائد.

وإذا كان الأستاذ يعلم أن الجرائد جعلت لمصلحة الجمهور، فإن السؤال عن المجهولات - ولاسيما العلمية - هي من أهم مصالحه..

أمَّا إشارة الأستاذ في آخر جوابه إلى ما يفيد أنَّ السائلين يقصدون بســؤالهم توقع إقرار الشيخ بجهله، فهذا ممَّا لا يجرؤون عليه، فضلا عن أنه يرضـــيهم، ليسألوا غيره من فحول المؤرخين الذين لهم باع طويل في البحث والتنقيـــب. فليحسن الظن الأستاذ بالناس، فإن حسن الظن من التقوى التي أمرنا بها فـــي آخر جوابه، ونرجو ممن لهم إطلاع واسع في التاريخ إن علموا شيئًا عن هذه القلعة، فليفيدونا بما يعلمون، ولسلفهم شكرًا.. والسلام.

بعضهم

حــول قلعــة نابليون[1]

نشرت جريدة «الثمرات» الصادرة في يوم الثلاثاء الماضـي فصـلاً عـن **الشيخ الخضري بك**، والسؤال الذي وجهه إليه الطلبة عن قلعة نابليون جاء في آخرة:

.. وهل يليق بالأستاذ الخضري بك أن يسكت مدة خمسين يومًا على هـذا السؤال بدون أن يحرك ساكنًا، ويقف هذا الموقف الحرج، أمام طلبة العلم الذين طالما توجهوا لرؤية هذه القلعة؟!، أما كان الأولى له أن يُريح البـال، ويزيـل الشك والإشكال الذي خالج هؤلاء الطلبة، حتى لا يدعهم يتحدثون بعجزه فيمـا بينهم؟.

ولو رجع إلى الحقيقة، وآب إلى الصواب، لعلم أن إهماله في الرد، وتقصـيره عن الجواب، لا يرضاه مُنصف بأي حال من الأحوال، ولعلَّ ما دعاه إلى هذا السكوت لم يكن إلا عجزه عن الجواب، وكيف يجيب بـ«لا أدري» وهو يرى أنه المؤرخ الكبير والباحث الجليل، ولا يوجد سواه عليم بتاريخ مصر، وهـو بآثارها خبير بصير؟! ولو كان الأستاذ من الباحثين المحققين لظهر أثر بحثه، واستدلاله في محاضراته التاريخية التي يُلقيها الآن بالجامعـة المصـرية؛ إذ السامع لها والمُطَّلع عليها لا يرى إلا أنها محاضرات مبتورة منقولة من هنـا ومن هنا من كتب التاريخ السهلة التناول، وليس عليها من طلاوة الاستنتاج أو النقد، أو الترتيب ما يجعل الإنسان يقبل عليها أو يهش لها، بل هي عبارة عن سرد قصص ووقائع تعوَّد القارئ مطالعتها من قبل في **المقريزي والسـيوطي**

(١) نقلاً عن الكشكول يوم الجمعة ٢٠ رجب سنة ١٣٣٥ هـ (١١ مايو سنة ١٩١٧م).

وابن إياس وغيرهم من مؤرخي مصر الذين ينقل عنهم الأستاذ بدون درس أو فحص أو إبداء رأي أو استنتاج نتيجة، وإن كنا نعذر الأستاذ في أنه لم يكن يُعرف عنه إلا أنه فقيه فقط، إلا أنه كان يجب على الأستاذ ألا يتصدَّى لتدريس التاريخ في معهد عظيم كالجامعة المصرية التي ينظر إليها العالم الغربي المتحضر نظرة المنتقد البصير، فإن أمثال هذه المحاضرات، إذا اطلع عليها علماء أوروبا المستشرقون، لا يسعهم إلا الاستغراق في الضحك، وأن يحكموا بأن معارفنا ضئيلة جدًا، مع أننا ـ والحمد لله ـ أصبحنا في درجة تُسر في هذا العصر، في مضمار المعارف والعلوم، ولهذا قد نعى أحد شعراء العصر حال الجامعة وأستاذ التاريخ بها فقال[1]:

مَنْ لَمْ يَرَ الدّمنَ الدَّوَا	رِس، فَلْيَقِفْ بِالْجَامِعَة
فَهِيَ الطُّلُولُ، تَظَلُّ عَيْنِي	فِي ثَرَاهَا دَامِعَة
قَالُوا: بِهَا الْخُضَرِيُّ	شَمْسٌ لِلْمَعَارِفِ سَاطِعَة
مَا بَالُهَا كَسَفَتْ وَكَا	نَتْ قَبْلَ ذَا فِي الرَّائِعَة ؟!
سَمِعَ السُّؤَالَ كَأَنَّمَا	وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْوَاقِعَة
يَا أَيُّهَا الأُسْتَاذُ	صَمْتُكَ حُجَّةٌ لِي قَاطِعَة
أَنْ لَيْسَ فِينَا عَالِمٌ	لَكِنْ ظَوَاهِرُ خَادِعَة

(١) نشرنا هذه الأبيات كما وردت في صحيفتي الثمرات والكشكول سنة ١٩١٧م ، ونرى الآن أن الجامعة المصرية بلغت في رقيها العلمي والأدبي غاية نتمنى لها المزيد بفضل القائمين بأمرها، حتى نراها تضارع أكبر الجامعات في سائر الأقطار، لاسيما وقد أدمجتها وزارة المعارف العمومية بالجامعة الأميرية.

قلعة نابليون والأستاذ الخضري

ونشرت جريدة الكشكول بتاريخ يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ١٣٣٥ هـ (١٨ مايو سنة ١٩١٧م) ما نصُّه:

نشرت جريدة الأفكار ردًّا للشيخ الخضري بك وكيل مدرسة القضاء الشرعي تحت عنوان «قلعة نابليون والأستاذ الخضري»، وقد علَّقت عليه بما يأتي:

هذا هو الرد الذي تفضَّل به الخضري بك على سؤال عن قلعة نابليون، ونحن ننصف فضيلته كل الإنصاف في أنه لم يكن قبل اليوم من واجبات المُدرس أن يكون مُستعِدًّا ليُجيب كل من يسأله على صفحة جريدة من الجرائد السيارة؛ إذ المدرس كما يقول فضيلته: ليس مُلزمًا لا رسميًّا ولا أدبيًّا ولا دينيًّا بأن يقرأ الجرائد، حتى ولو كان من أولئك الذين يريدون أن يُعرفوا بأنهم «غواة علم»، والذين يحملهم الطمع في ذلك على أن يتأبطوا دائمًا الكتب حتى في تنقلهم من قهوة إلى قهوة..

قرأنا خطاب **الخضري بك** فعرفنا أنه لم يقصد برده إلا إيلام الكتاب الذين لم يجدوا من اللياقة أن يتركوه وشأنه على سكوته، والظاهر أن فضيلة الشيخ من أولئك المعلمين الذين يُفضِّلون أن تكون علاقتهم بتلاميذهم في الأسئلة والأجوبة مباشرة، وبالذات لا بواسطة الصحف، وألا فلماذا هو قد رد – ورد في نحو نهر من أنهر صحيفة الأفكار – دون أن يُشير بكلمة إلى الجواب عن السؤال؟ مع أن ذلك لا يكلفه أكثر من سطر أو سطرين، ولماذا هو لا يرد إلا ليقول « إن كان يرضي هذا السائل ويريح ضميره أن أعلن له أني أجهل نسبه هذه القلعة إلى من نسبت إليه ولا أتحقق نسبتها إلى غيره فأنا أعلن له ذلك، فليسجله إن شاء، وليتق الله ربه»؟ مع أن واجب العالم ألاَّ يكتم علمه، كما يجب على الشاهد ألاَّ يكتم شهادته أ.هـ.

خـــاتمـــة الكـــتاب

يتبين للقارئ من المستندات التاريخية التي أثبتناها، والأدلة الدامغـــة التـــي سقناها، والمكاتبات الرسمية التي ذكرناهـــا، والاستشـــهادات القاطعـــة التـــي سردناها، مقدار ما تكبدناه من المشقة، وهي تدل بأسطع برهان وأجلـــي بيـــان على ما بذلناه من الجهد، ليكون الكتاب – بعونه تعالى – من الوجهة التاريخية آية في الكمال بقدر الإمكان.. لاسيما ما تحلَّى به من حســـن الطبـــع وإتقـــان العمل؛ إذ رائدنا وشعار خطتنا الصدق في القـــول والإخـــلاص فـــي العمـــل والتمسك بعرى الثبات، ليعلم القارئ، أنه لا تطمس حقيقة وراءها باحث، كمـــا لا يضيع حق وراءه مطالب.

ولا يفوتنا في هذه الخاتمة أن نكرِّر واجب الشكر لحضرة صاحب الســـمو الأمير الجليل **عمر طوسون** للمستند التاريخي الهام الذي تفضل بإرساله إلينـــا، وأثبتناه في صفحات ١٨ و ١٩ و ٢٠ من هذا الكتاب، وهو ما كتبه الرحالـــة الفرنسي **الماريشال مارمون** عن هذه القلعة؛ لأنه يعتبر شهادة تاريخية ثابتـــة ثبوتًا حاسمًا في أنها من عمل **محمد علي** دون سواه، وكأن الأقدار أرسلت لنا هذا الدليل الناطق، وذاك البرهان القاطع، لتأييد البحث الذي قضـــينا الســـنين الطوال في تمحيصه، وسهرنا عليه الليالي، ووفيناه قسطه من التحقيق الدقيق، والاستدلال الصحيح، حتى وصلنا ـــ بتوفيقه تعالى ـــ إلى الغاية التي جاء قول **الماريشال مارمون** مُصدِّقًا لها، بما فيه من تمام الإقناع ونهاية اليقين.

وإنا نحمد الله؛ فقد كلل مجهودنا بالنجاح، وتوَّج عملنا بـــالفلاح؛ إذ سُـــجِّلت القلعة باسم **قلعة محمد علـــي**، وأصبحت من قلاع البلاد الوطنية المُشيَّدة بأيـــد مصرية، وصارت لا تُعرف الآن إلا بهذا الاسم.

ولا يسعنا بعد هذا إلا أن نختتم الكتاب كما بدأناه بقوله جل شانه:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

الحالة العسكرية في أيام محمد علي

لمناسبة علاقة قلعة محمد علي بالحالة العسكرية في أيامه نُزيد هذا البحث التاريخي معلومات تاريخية ممتعة، بما نشره حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون عن المدارس الحربية والمعامل العسكرية والجيش المصري -البري والبحري- في عهد جدة العظيم الشأن **محمد علي**؛ لأنه وثيقة تاريخية قيّمة، وتحفة ثمينة من كنوز تاريخ مصر الحديث، في أيام مُحييها ومُنشئها محمد علي، يتبين منها للقارئ مقدار اهتمامه - رحمه الله - بشئون البلاد من الوجهة العسكرية، كما كان مهتمًّا بشئونها من الوجهة العلمية والصناعية والزراعية، وقد دلَّت الآثار الخالدة على أن مصر قد أدركت قسطًا عظيمًا من التقدم في هذه العلوم -علمًا وعملاً- في أيامه السعيدة.

وقد استأذنَّا سموَّه في نشره بين دفتي كتابنا هذا، فسمح لنا - حفظه الله - بخطابه المرسل بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٣م، بنشره عن طيب نفس.

وإننا نختتم به هذا الكتاب إتمامًا للفائدة، وتعميمًا للنفع، وتنويهًا بشأنه، وتخليدًا لذكره، واعترافًا بقيمته الثمينة، وحفظًا لأثره الخالد؛ لتكون هذه الصفحة التاريخية القيِّمة خير مثال يُحتذَى، وأقوم سبيل يُقتفَى، وصورة للحقائق تُقتنَى، مع تقديم خالص آيات الثناء، وفروض الإجلال لسموِّه لخدمته الصادقة للعلم وعمله النافع على نشره، ولم يأل جهدًا في الأخذ بيد المشتغلين به، وتشجيعهم تنشيطًا لهم وتقديرًا لأعمالهم، حتى نال أكبر فخر في هذا السبيل العظيم..

قال حفظه الله حضرة صاحب السمو الأمير الجليل **عمر طوسون**

يَا ابْنَ الأُلى فَتَحَ الكِنَانَـةَ سَـيْفُهُم فَـأقَرَّ أَفْئِـدَةً بِهَـا وَعُيُونَـا

مَنْ قَالَ يَا عُمَرُ فَقَدْ نَـادَى العُـلا وَدَعَا كَرِيمًـا فِـي الْخُطُـوبِ مُعِينَـا

يَبْنِـي جُـدُودُك لِلْـبِلاَدِ قِلاَعَهَـا ونَـرَاكَ تَبْنِـي لِلْعُلُـومِ حُصُـونَا

المدارس الحربية والمعامل العسكرية

تمهيـــــد:

في عهد مُنقذ مصر ومُحييها ساكن الجنان المغفور له بإذن ربه محمد علي باشا، كتبنا رسالتنا في الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علـــي، وكان ذلك على أثر ما نُشر في بعض الجرائد من تنويهًا بما كانت تملكه مصر في ذلك الحين من القوة العسكرية التي صـــانت بهـــا بيضـــتها، وذادت عـــن حياضها، وفتحت ما جاورها من الممالك، وقد اطلعنا أخيرًا على بحـــث فـــي إحدى جرائدنا أيضًا عن المدرسة الحربية الوحيدة التي تملكها مصر الآن، يُراد به بيان ما هي عليه من القصور، وما يجب أن يكون فيها إذا أريد إصـــلاحها، فلفت ذلك نظرنا إلى ما كان لمصر في عصر جدنا الأعظم محمد علـــي مـــن المدارس الحربية المتنوعة والمعامل العسكرية المتعددة، ورأينا في نشر ذلـــك على الجمهور المصري تذكيرًا بأوّليتهم، وتعريفًا بماضيهم القريب، يجـــب أن يكونوا على بينة منه.

وهذا البحث الممتع هو أساس لرسالتنا في الجيش المصري البري والبحـــري في عهد **محمد علي**؛ إذ لا يوجد جيش نظامي إلا إذا سبقه في الوجود معاهـــد للتعليم العسكري، ومعامل لصنع معداته وأدواته وذخائره.

وقد ترجمنا هذه الفصول من كتاب **المسيو فيلكس مانچين** قنصـــل فرنســـا الچنرال بمصر في عهد محمد علي؛ لأنه أوفي ما كُتب في هذا الصدد، وهـــو كتاب مشاهد رأى بعيني رأسه ما دَوَّنه، فهو من هذه الجهة وثيقة تاريخية قيِّمة، وتحفه ثمينة من كنوز تاريخ مصر الحديث في أيام مُحييها ومُنشـــئها **محمـــد**

علي، يجدر بأبناء الجيل الحاضر أن يدرسوها ويحيطون بها علمـــًا، حتـى يقفوا على سر تلك النهضة الفائقة التي رفعت مكانة مصر بين العالمين في ذلك الحين، وجعلت الغربيين يرمقونها بعين الإكبار، ويُـدوِّنوا أخبارهـا باهتمـام عظيم، فاق اهتمام بنيها أنفسهم.

ولعل القارئين لهذا الأثر– وفيه ما فيه من ذكرى صالحة تستنهض الهمـم الراقدة – يسترشدون بهذا الماضي المجيد في حياة مصر الحاضرة والمستقبلة، ويجعلونه نورًا بين أيديهم.

قال **مانچين في كتابه: «تاريخ مصر في عهد محمد علي»** المطبوع بباريس في سنة ١٨٢٣م.

المدارس الحربية والمعامل العسكرية

إذا أراد صاحب البلاد أن يكون لها جيش على النظام الحديث، مُؤلَّف مـن المشاة والفرسان والمدفعية، فإن هذا الجيش يحتاج إلى مدارس تقـوم بمهمـة تخريج الضباط اللازمين لمختلف هذه الأسلحة، وإلى مستشفيات تعتني بأفراده إذا مرضوا، ولابد فضلاً عن ذلك أن تكون له إدارة حربية تشرف على هـذا العمل العظيم؛ إذ بدونها لا يَتأتّى وجود جيش منتظم.

فمحمد علي كان شغفًا بتمدين مصر، وكان مُتشبعًا بهذه الحقيقة، فلم يهمـل شيئًا قط للوصول إلى غرضه؛ لأنه أحضر من مختلف بلاد أوروبـا أسـاتذة وأطباء وصيادلة ومعلمين، شيَّدوا في أماكن اختيـرت أحسـن اختيـار تلـك المدارس والمستشفيات، وهذا العمل الكبير – الذي هو وليد فكرة محمد علـي وحدها – ابتدأ الاهتمام به منذ عشر سنوات، وظهرت نتائجه الباهرة الآن، بعد

ما امتدت يد الإصلاح إلى كل فرع من فروع التعليم، وخطت المدارس كافة خطوات واسعة المدى، فأتت بأحسن النتائج التي تسترعي نظر القارئ، وسأتكلم فيما بعد عن هذه المعاهد النافعة بإسهاب.

عرف محمد علي أن أساس تقدم أوروبا - لاسيما فرنسا التي كان يقلدها في كل شيء - إنما قام على بث روح التعليم، فاهتم اهتمامًا عظيمًا ببث هذه الروح في بلاده التي كان شغفًا بها، وأنشأ مجلسًا للمعارف مُؤلَّفًا من رئيس وثلاثة أعضاء اصطفاهم من خير الرجال، وقد أدَّى هذا المجلس وظيفته، وقام بواجبة بكل نشاط، وكان يعقد جلساته كل يوم في ذلك البناء المقام على أنقاض القصر الذي سكنه من قبل القائد العظيم بونابرت وخلفاؤه في حي الأزبكية، ومختار بك ناظر المعارف والأشغال العمومية هو الذي اختير رئيسًا لهذا المجلس.

فأصبح في مصر رهط عظيم من التلاميذ، وُزِّع على كثير من الفصول، وكان بعضه يتلقَّى اللغة الفرنسية، والبعض الآخر اللغة العربية، واختُصَّ فصلانِ بدراسة اللغتين التركية والفارسية، وهذا المعهد عُيِّن له ناظر أخذ على عاتقه حفظ النظام بين تلاميذه الذين كانوا كلهم داخلية.

وكان تحت إدارة مجلس المعارف المذكور أيضًا مدرسة **المدفعية** بطُره، ومدرسة **الفرسان** بالجيزة، ومدرسة **المشاة** بدمياط، وهذه الأخيرة وحدها كان فيها مائتا تلميذ يتعلمون اللغتين العربية والتركية والرياضة وكيفية استعمال الأسلحة، ثم مدرسة **الطب البيطري**، وباقي المدارس الابتدائية المنتشرة في أنحاء المديريات.

وكان **المسيو لينان** رئيس مهندسي القناطر والجسور يتلقَّى الأوامر من المجلس المُشار إليه، ويُحيل ما يلزم إحالته منها على التابعين له.

أما مدرسة **الزراعة** بنبروه فكانت تحت إشراف مجلس المعارف المذكور، وكان فيها أربعة معلمين فرنسيين يعلمون أربعين تلميذاً من أبناء الفلاحين علم الفلاحة، ويُطلعونهم على أساليب إصلاح الأرض وزرعها.

مدرسة الطب والمستشفى العسكري والمجلس الصحي

شُيِّد بين قريتي «الخانقاه»، و«أبي زعبل» على الأوضاع والرسوم التي قام بتخطيطها الدكتور **كلوت بك** رئيس أطباء الجيش بناء هذا المستشفى الجامع الذي أدَّى وظيفته الأصلية باستعداد تام من حيث معالجة المرضى، وكان فوق ذلك مدرسة طب يتعلم فيها التلاميذ ويطبقون العلم على العمل.

ويرى الزائر حول هذا المستشفى حقلاً جميلاً، زرعت فيه العقاقير والنباتات الطبية، وحوى ما كان نادر الوجود جدًا منها.

وفي مدرسة الطب، التي به ثمانية من نوابغ المدرسين يتلقى عنهم التلاميذ علوم التشريح والجراحة والأمراض الباطنة والظاهرية والطب الشرعي والطبيعة والكيمياء والنبات، وأربعة مدرسين آخرين للغة الفرنسية، ومترجمان يقومان بترجمة ما يلزم لمدرسة الطب ومدرسة الصيدلة معًا.

وبلغ عدد هؤلاء التلاميذ مائة وأربعين بمدرسة الطب، سوى خمسين تلميذاً آخرين يدرسون **فن الأقرباذين** في قسم الصيدلة، وفي نهاية كل سنة يمتحنون جميعًا ليُعرف مبلغ ما حصلوا عليه.

وقد وسعت غرف المستشفى سبعمائة وعشرين سريرًا، وهي غرف نُسِّقت تنسيقًا بديعًا، وتخلَّلها الهواء الطلق، وحلَّت النظافة منها في كل مكان، حيث نيط بمدرسي مدرسة الطب ملاحظة خدمة المستشفى فقاموا بذلك وبالتدريس في آن واحد.

ودعت حاجة مدينة القاهرة إلى إقامة مستشفى آخر في ميدان الأزبكية يسع ثلاثمائة سرير لمرضى الرجال، ومائتين لمرضي الإناث، وهو تابع للمستشفى الأول في أبي زعبل وفرع منه، تنقل مرضاه إليه عند ما يكثر عددهم، أو تكون أمراضهم خطرة، كما أنشيء مستشفى خاص بالولادة، له أساتذة وطلاب عديدون، ومدرسة للقابلات تحت إدارة إحدى قابلات باريس الماهرات.

وأما **المجلس الصحي** فكان أعضاؤه أربعة، اختيروا من مشهوري الأطباء الذين في خدمة الوالي، يرأسهم الدكتور **كلوت بك**، ووظيفة هذا المجلس الأولى السهر على الصحة العمومية، ثم اختيار الأطباء والصيادلة للجيش بعد امتحانهم، وعرض الناجحين منهم على ناظر الحربية، وكان الأمر كذلك في نقلهم وترقيتهم بعد ما يتلقون أوامر الناظر في هذه الشئون.

مدرسة الطب البيطري

وشُيِّد بالقرب من المستشفى الآنف الذكر مستشفى جميل للخيل، كان أيضًا مدرسة للطب البيطري، أسسها م. **هامونت**، وبلغ تلاميذها مائة وعشرين طالبًا، يدرسون فيها البيطرة على أستاذين فرنسيين، وفي المباني الملحقة بهذه المدرسة إصطبلات كان يوجد بها عادة مائة حصان، ثم نقلت المدرسة المذكورة إلى شبرا بعدما شُيِّدت لها هناك دار فسيحة ومحل لتربية الخيول

والاعتناء بها، حوى ثلاثين حصانًا من فحـول الخيـل للنـزوات «طليقـة» وستمائة وسبعين فرسـًا.

مدرسة المشاة بالخانقاة

أعدت هذه المدرسة على أحدث نظام، يتعلم فيها أربعمائة شاب مصـري، قسموا إلى ثلاث فرق، والعلوم التي تتلقى فيهـا هـي: التمرينـات، والإدارة الحربية، واللغات العربية والتركية والفارسية.. وكان بها ضابط جراح للاعتناء بالجرحى والمرضى، وكانت أول ما أنشئت بمدينة دمياط ثم نقلت إلى الخانقاه.

مدرسة الفرسان بالجيزة

هذه المدرسة كانت في نفس القصر الذي سكنه المملوك الحربـي الشـهير **مراد بك**، والذي قضي فيه بونابرت الليلة التالية لمعركة الأهرام، وهذا القصر يُملِي علينا ذكريات مجيدة، حتى أن الذين زاروا مصر في هذا العهد لا يزالون يعرفون هذا القصر، رغمًا عمًا أدخله الأتراك فيه من التغيرات، وقـد أصـبح الآن ثكنة جميلة للفرسان، ومدرسة نظمها المسيو **فارن** الذي كان أركان حرب المارشال **جوفيون سانت سير**، وفي هذه المدرسة يتعلم مائتا جندي حديثو السن مناورات الفرسان، فضلاً عن الحركات العسكرية وهم مشاة، وكانوا يرتـدون ملبسًا مشابهًا تمام المشابهة لملبس الفرسان الفرنسيين -فيما عدا القلنسوة- ولهم أساتذة يعلمونهم اللغتين التركية والعربية، وضباط لقيادتهم، ونظامها هو نفـس النظام المتبع في مدرسة «**سومور**» إلا بعض تغييرات طفيفة استلزمتها الحالة المحلية، وفيها أيضًا أساتذة لتعليم اللغة الفرنسية، والرسم، والمبارزة، وترويض الخيل، ويتعلم فيها التلاميذ فوق ما مضى استعمال النفير وسائر آلات الموسيقى

التي تستخدم في فرق الفرسان، وهؤلاء التلاميذ كانوا خليطًا من المصريين والأتراك، وهم يتخرجون منها ضباطًا لفرق السواري، متعلمين ومدربيين تدريبًا حسنًا، وكان لهذه المدرسة - كبقية المعاهد الأخرى- ناظر مكلف بالسهر على حفظ النظام بين مرءوسيه وتوقيع الجزاءات وتوزيع الغذاء والعلف، ورئيسه المباشر هو ناظر الحربية لأنه كان من الرجال الحربيين.

مدرسة المدفعية بطره

أسس هذا المعهد المفيد الكولونيل الأسباني **دون انطونيو دي سيجويرا**، وهو الذي أوحى إلى إبراهيم باشا فكرة وجود مدرسة خاصة بالمدفعية لتخريج ضباط أخصائيين في هذا السلاح، إذ قدم منذ أربع سنوات مشروعًا صادق على جميع محتوياته، فأُسِّست المدرسة على مقتضاه منذ هذا الوقت، وانتُخب لها ثلاثمائة طالب من مدرسة قصر العيني الابتدائية يتعلمون فيها مباديء اللغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية، وكان يعطيهم الكولونيل **دي سيجويرا** نفسه دروس الرياضة والرسم، عدا معلمين آخرين يعلمونهم ويدربونهم على كيفية استعمال المدافع، فتقدموا تقدمًا سريعًا في العلوم النظرية والعملية، وأظهر الذين أرسلوا منهم في الجيش المُغير على سوريا نشاطًا فائقًا ومهارة عظيمة، كما أظهرت المدفعيتان الثقيلة والخفيفة مثل هذا النشاط والمعرفة التامة، خصوصًا ضباطهما الذين كانوا على كفاءة ودراية عظيمة بفنهم.

والوالي الذي كان لا يجهل فائدة مدرسة طره المدفعية أراد أن يرى بعيني رأسه نتائجها، فزارها، ثم أبدى سروره وارتياحه من أساتذتها ونظامها

ومعداتها، وأظهر ذلك الارتياح بإنعامه في نفس يوم الزيارة على الكولونيل دي سيجويرا برتبة البكوية وترقيته إلى رتبة «جنرال».

وكان يوجد بالقرب من هذه المدرسة في حظيرة بطـــره أربـــع وعشـــرون بطارية مدفعية، وفي هذه المدرسة مستشفى خاص يديره أحد الأطباء، ويساعده في ذلك صيدلي لأجل معالجة المرضى.

مدرسة الموسيقى في الخانقاة

أراد محمد علي أن يكون نظام جيشه كنظام الجيوش الأوروبية، فـــأمر أن يكون لكل آلاي من الجيش موسيقى، وكلّف مندوبيه بفرنســا أن يستحضـــروا آلاتها وينتخبوا معلميها، وقد كان ذلك، وقام هؤلاء المعلمون بتعليم هذا الفــن للمصريين في زمن وجيز، حتى أن المهارة التي كان يوقــع بهــا الفلاحــون المصريون النغمات الموسيقية على النوتات أدهشت جميع الفنانين، وخصوصًا الأجانب من جميع الجنسيات الذين كانت تجذبهم إلى شواطئ النيل شهرة **محمد علي**، فكانوا يأتون أفواجًا لزيارتها، حتى أصبحت هدفًا لأنظار أوروبا، لـــذلك أُسس في الخانقاه معهد للموسيقى جمع مائة وثلاثين تلميذًا تحت نظر المســيو **كاريه**، وقام بتدريس هذا الفن فيه أربعة معلمين، دفعتين في اليوم، وبتعليم اللغة العربية معلمون آخرون، وإذا احتاجت آلايات المشاة لأنفار موســيقيين أمــر ناظر الحربية فعمل امتحان لهؤلاء التلاميذ، ومن كان منهم أكثر معرفة فُضّل على غيره، وأُلحق بالفرق التي هي في احتياج للموسيقيين.

مدرسة قصر العيني الأميرية

هذا البناء الواسع المُشيد على شاطئ النيل بين القاهرة والفسطاط، كان باديء ذي بدء محل نزهة ولهو، ثم حوله الفرنسيون إلى مستشفى ذي حصون، وفي إحدى قلاعه وُضع رفات القائد الشهير كليبر، ثم غير الترك وضع هذا البناء وحولوه إلى ثكنة للفرسان، وبعد ذلك أضاف إليه محمد علي مبانٍ جديدة جعلته أكبر مما كان، وفيه الآن ثمانمائة طالب تتراوح أعمارهم بين عشر سنين وخمس عشرة سنة، ينتسبون إلى أسر تركية ومصرية، وقد اختير لهم معلمون للغات العربية والتركية والفارسية، وهذه المدرسة إعدادية تؤهل طلبتها للالتحاق بمدارس الطب والمشاة والفرسان والبحرية، وفيها مكتبة تحتوي على خمسة عشر ألف مجلد لمؤلفين فرنسيين وإيطاليين.

معامل القلعة وتوابعها

منذ عشر سنوات كانت هذه المعامل شيئًا لا يذكر، ولكنها الآن متسعة الأرجاء، وأقسامها الواسعة تشغل جزءًا عظيمًا من القلعة يمتد من قصر صلاح الدين القديم إلى باب الإنكشارية، الذي يطل على ميدان الرميلة (ميدان صلاح الدين الآن)، وهي تحت إدارة قائد المدفعية أدهم بك، ويشتغل فيها تسعمائة صانع في معامل الأسلحة يصنعون في الشهر من ستمائة إلى ستمائة وخمسين بندقية، والبندقية الواحدة تتكلف اثني عشر قرشًا، ولرؤساء الصناع مرتبات ثابتة، وللعُمَّال أجور يومية.

وفي مصنع خاص تُصنع زناد بنادق المشاة وسيوف الفرسان ورماحهم، وفي معامل أخرى تصنع النيازك (الفواشيك) والسيوف وكل ما يتعلق بمعدات

المشاة والفرسان، وكذلك اللجم والسروج وملحقاتها، وصناديق المفرقعات ومواسير البنادق تشغل مكانًا مُتسعًا جدًا، أمَّا أهم هذه المعامل فهو معمل صب المدافع الذي يستدعي بذل مجهول كبير وانتباه أكبر، ويُصنع فيه من ثلاثة مدافع إلى أربعة -من عيار أربعة- وثمانية أرطال في كل شهر، وفي بعض الأحيان يصب فيه مدافع الهاون ذات الثمانية بوصات، ومدافع من هذا النوع يبلغ قطرها أربعًا وعشرين بوصة، وعُمَّاله لا يقلُّون عن ألف وستمائة عامل يستهلكون كمية عظيمة من الحديد والفحم، ولا غرابة في ذلك؛ فكل وال له جيش عرمرم ومدفعية جسيمة يجب أن يكون له معامل كهذه فيها كل ما يلزم لتمرين تلك القوات.

معمل البنادق في الحوض المرصود

تأسيس هذا المعمل كان عقب تأسيس معامل القلعة، وفي حوالي آخر سنة ١٨٣١م شرع في جمع العُمال له، وأعد للعمل، وقد كان قبل هذا التاريخ فيه أنوال للنسج، وألقيت عهدة النظام فيه على عاتق المسيو **مارنجو** المولود في مدينة «چنوة»، والمعروف منذ بضع سنين باسم **علي أفندي**، والذي اكتسب معلومات وتجارب قيمة في أثناء خدمته بمعامل القلعة تحت إمرة القائد أدهم بك، فاشتغل بهمة وثبات، وتخرج على يديه صناع ماهرون في أنواع صنعة البنادق من جميع الأحجام، وبلغت طوائف العمال في هذا المعمل ألفًا ومائتي شخص ما بين عامل ورئيس عمال وصبي، وهم يصنعون في الشهر نحو التسعمائة بندقية، منها ثلاثمائة إنجليزية دون مواسيرها، والبنادق المصنوعة

في هذا المعمل للمشاة النظاميين والفرسان ورجال المدفعية على نفس النموذج المستعمل في الجيش الفرنسي، ومتوسط ما تتكلفه البندقية أربعون قرشًا.

وكانت تُعمل تجربة للمدافع في كل أسبوع عندما يكون الحديد المصنوعة منه من نوع غير جيد شبيه بما يُستعمل الآن، فتكون النتيجة أن يُلقى خُمس عدد هذه المدافع، ويُترك في زوايا الإهمال؛ لأنه لم يحتمل التجربة، وإذا كان الحديد من النوع الجيد الواجب استعماله في هذا العمل الخطير لا تتجاوز الكمية الملقاة منه السُدس.

أما البنادق فكانت تصنع صنعًا جيدًا على العموم، ولأجل معرفة عيوبها بدقّة يجب أن يكون الإنسان ذا دراية تامة بكل ما يتعلق بصناعة هذه الأسلحة، والعيوب تأتي من نوع الحديد وليست من عدم مهارة العامل على الأرجح.

مسبك الحديد

«مسبك بولاق» بناءٌ شُيِّد تشييدًا فخمًا، وله منظر جميل ينم عما يؤديه من الخدمات العظيمة، والبناء وحده بلغت قيمته مليونًا ونصفًا من الفرنكات، وواضع رسمه هو المسيو **جلوية** المهندس الميكانيكي الذي في خدمة الوالي، وقد وضعه على نموذج «مسبك لوندرة»، والمكلف بإدارته رئيس إنجليزي معه خمسة من الإنجليز، وثلاثة مالطيون رؤساء عُمال، وفيه أربعون تلميذًا مصريًا موزعون على جميع أقسام المسبك، وفوق ذلك عُين له ناظر مُكلف بضبط حسابه ومسك دفاتره، يعاونه كاتبان قبطيان في ذلك، وهو يراقب أيضًا نظام جميع فروع المسبك، ورئيسه المباشر القائد أدهم بك مدير معامل القلعة، وهذا الناظر برتبة ضابط، ويصب في هذا

المسبك كل يوم خمسون قنطارًا من الحديد المعد لصابورة المراكب، والآلات التي تصنع في المعامل، وهذه العملية تستلزم خمسين قنطارًا من الفحم الحجري، وتبلغ مصاريف المسبك عشرة آلاف قرش إلى أحد عشر ألف قرش في الشهر، عدا ثمن المهمات.

معمل البارود وملح البارود

أقيم بناء هذا المعمل بالمقياس في طرق جزيرة الروضة، في مكان فسيح ومناسب لبعده عن جميع المباني الآهلة بالسكان، ومديره هو المسيو **مارتيل** الذي كان مُستخدمًا في معمل البارود بمدينة «سانت شماس»، ويعمل تحت إدارته تسعون عاملاً موزعون على أقسامه الكثيرة، ومن بين هؤلاء العمال ثمانية عشرة عاملاً يخلطون الكبريت والفحم وملح البارود، وواحد وعشرون عاملاً يقلبون البارود في الطواحين – وهي عشرة طواحين، لكل واحدة منها عشرون موقدًا، وتتحرك بعشرة آلات تدور بواسطة البغال التي يسوقها عشرة رجال- ويُصنع في اليوم في هذا المعمل خمسة وثلاثون قنطارًا من الرش علي يد أربعين عاملاً مُكلَّفين بهذا العملية، وطريقة صنع البارود في مصر هي طريقة التبخير -كما أوضحنا ذلك بالجزء الثاني من كتابنا- وهذه الطريقة اقتصادية أكثر من طريقة النار.

وقد كثر صنع البارود بمصر بإنشاء كثير من المعامل التي تصنع ملح البارود، وإننا نذكر أسماءها بالتوالي على حسب الناتج من كل منها سنة ١٨٣٣م.

	قنطار		قنطار
معامل القاهرة	٩٦٢١	معمل الفيوم	١٢٧٩
معمل البدرشين	١٦٨٩	معمل أهناس	١٢٥٠
معمل الاشمونين	١٥٣٣	معمل الطرانة	٤١٢

تحريرًا في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٣م

عمر طوسون

الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي

راقني ما قرأته أخيرًا عن الجيش المصري - البري البحري - في بعض الجرائد أيام حكم جدنا الأعظم محمد علي، فراجعت ما كتبه في ذلك الوقت **مانجين** قنصل جنرال فرنسا، **وكلوت بك** مدير الصحة العمومية ورئيس أطباء الجيش المصري، ثم ما كتبه حضرة صاحب السعادة **إسماعيل سرهنك باشا** عن البحرية المصرية في ذلك العهد في كتابة «حقائق الأخبار عن دول البحار»، وإن الشعور الذي تملكني عقب ذلك كان شعورًا ممتزجًا بالأسى على الماضي والأمل في المستقبل، فأحببت أن يشاركني بنو وطني في الأثر الذي تركته هذه الذكرى التاريخية في نفسي، ورأيت في نشر ذلك فائدة وأي فائدة لجيلنا الحاضر؛ إذ ليس أنفع لشحذ العزائم وحفز الهمم إلى العمل، من هذه الذكريات لشعب له ماض حميد، ولا أضر له من ترك عناكب النسيان تنسج عليها حجب الظلمة والغفلة.

لذلك ترى أعظم الشعوب أكثرها عناية بإحياء تلك الذكريات، والإكبار منها، وبالعكس ترى الأمم المتبربرة، قد انمحت من حياتها هذه الذكريات انمحاءً يجعل ما تعيش فيه من الظلمة حالك السواد.

وإني أحُثُ كُتَّابنا وعلماءنا على الإكثار من إثارة دفائن تاريخنا، والكشف عن كنوزه، حتى يكون لنا منها أمثلة مضروبة للحياة العالية، تحتذيها الأجيال الحاضرة وتنسج على منوالها، وإذا كانت الجيوش للأمم هي السياج الذي يحوطها ويدرأ عنها، أدرك قيمة ما تخلفه هذه الذكرى الطيبة من الأثر النافع..

وإليك ما كتبه **مانجين وكلوت.**

محمد علي باشا

أدرك محمد علي باشا بمجرد ما استلم زمام حكومة مصر أنه لابد من إدخال النظام الحديث في القوة العسكرية البرية والبحرية لكل حكومة تريد أن تكون مقاليد البلاد في قبضة يدها، حتى تتمكن من إدارة شئونها على محور النظام، وتعمل على حفظ حوزتها من الغارات الخارجية.

ولعل الذي لفت نظره لما في النظام العسكري الحديث من التفوق ما شاهده بنفسه من انكسار الجيوش العثمانية التي كانت تحت قيادة الصدر الأعظم **مصطفى باشا** في واقعة أبي قير إمام الجيش الفرنسي بقيادة **بونابرت**، لذلك لم يلبث أن طلب من فرنسا مُعلمًا عسكريًا لجيش ينشئه على النظم الحديثة، فانتخبت له **الكولونيل سيف** الذي أسلم وعرف فيما بعد باسم سليمان باشا، وكان وصوله إلى مصر سنة ١٨١٩م، وفي السنة التالية وجهة محمد علي مع خمسمائة من مماليكه إلى أسوان ليدربهم هناك على الطريقة الحديثة في

استعمال الأسلحة والنظام العسكري، فاضطر عظماء مصر أن يحذوا حذو الوالي، ويرسلوا بمماليكهم إليه ليدربهم أيضًا، فأصبح عدد الموفدين للتدرُّب على يديه في أسوان ألفًا.

وهؤلاء كان من المنتظر أن يكونوا نواة الجيش النظامي في مصر، وإن كان من الصعوبة بمكان عظيم تدربهم على ذلك النظام.

وإنما جُعلت أسوان المركز العام للتعليم الجديد، واختيرت لهذه المهمة لخلوها من الملاهي التي تشغل الشباب، وبعدها عن الأنظار المتجهة إلى عمل الوالي، فيتفرغ هؤلاء الذين وضع المستقبل بين أيديهم للمهمة التي وجهوا لها، وتكون هذه التجربة السرية بمنجاة من شماتة الأعداء إذا هي أخفقت.
لذلك شيد هناك أربع ثكنات كبيرة لتكون مأوى لهؤلاء التلاميذ، ومدرسة يتلقون فيها مبادئ العسكرية الجديدة في آن واحد.

وبمجرد ما تكونت هذه النشأة العسكرية اتجهت أنظار الوالي إلى تأليف الجيش النظامي، وكان كلما فكر أن يكون هذا الجيش من الأتراك أو الأرناؤود اعترض له ما صدر من هؤلاء من الثورة ضد النظام العسكري مرارًا، فرأي أن يؤلف الجيش الجديد من جنس آخر، غير أنه بقي مُترددًا في تعيين هذا الجنس، وكان يرى اختيار المصريين لهذا الأمر مخاطرة كبيرة، فعمد إلى الوسيلة الأخيرة التي لم يكن أمامه غيرها، ألا وهي تأليف الجيش من أهل السودان، فجلب منهم ثلاثين ألفا إلى منفلوط (الواقعة في صعيد مصر على الشاطئ الأيسر للنيل)، وفي الوقت الذي وصلوا فيه إليها، غادر المماليك المدربون بأسوان هذه المدينة إلى منفلوط أيضًا، ومع ما بذله الباشا من هذه

الجهود العظيمة لم تُتوج هذه التجارب كلها بالنجاح التام، فقد فشا الموت فـي السودانيين، فهلك الألوف منهم لعدم ملاءمة طقس البلاد لهم من جهة، وضعفهم عن تحمل مشاق الخدمة العسكرية من جهة أخرى.

غير أن هذا الإخفاق لم يكن ليُرجع محمد علي عن عزيمته، بل ازدادت هذه العزيمة رسوخًا في نفسه، وحاول مرة أخرى إخراج هذا الجيش المُنظم الـذي رأى أنه في أشد الحاجة إليه إلى حيِّز الوجود، فعمد إلى المخاطرة التي كـان يتهيبها من قبل، وأنفذ بجسارة الفكرة التي كانت تخامره ولا يجـرؤ عليهـا، فأصدر أمره بجمع أنفار الجيش الجديد من المصريين، ولكن هؤلاء اعتبـروا هذا الأمر خَطبًا جللاً؛ فثارت خواطرهم لمجرد سماعه، وتمرَّدوا بعض التمرد، إلا أن تمردهم قُمِع قبل استفحاله، ولم تمر عليهم مدَّة طويلة حتى مـالوا إلـى المعيشة العسكرية لما لقوا فيها من رغد في المأكل وجمال في الملبس لم يكونا في حسبانهم من قبل، وانتهى بهم الأمر إلى أن يعتادوا الخدمة العسكرية التـي لم يمارسوها قط.

وفي يناير سنة ١٨٢٣م تم تكوين ستة آلايات، وأصبح المماليك الذين تدربوا في أسوان على النظام ضباطًا لهذه الآلايات الستة الأولى، ومرَّت سنة ١٨٢٣م كلها وجزء من سنة ١٨٢٤م حتى شهر يونيه في إتمام تعليم تلـك الآلايـات، وعلى أثر ذلك أمروا بالنزول إلى القاهرة، فأرسل محمد علي الآلاي الأول إلى بلاد العرب، والثاني إلى «سنار»، والأربعة الأُخر إلى «مـوره» مـن بـلاد اليونان بقيادة ابنه إبراهيم باشا.

ثم تتابع تشكيل الجيش الجديد، ولما اكتسب بعض النظام استدعى لـــه مـــن فرنسا الجنرال **بوير** والكولونيل **چودين** وغيرهما من الضباط العظام، فتســابق الجميع إلى بذل آخر ما عندهم من جهد ومعرفة لهذا العمل الجليل.

وهذا بيان قوة الجيش النظامي المصري وتوزيعه في سنة ١٨٣٧م:

بيان قوة الجيش النظامي المصري وتوزيعه في سنة ١٨٣٧م

رقم الألاي	المركز	القطر	قوة الألاي	رقم الألاي	المركز	القطر	قوة الآلاي
المشاة							
١ حرس	عينتاب	سورية	٣٠٤٨	١٧	أورفه	سورية	٢٣٦٩
٢	مرعش	سورية	٢٦٤٥	١٨	عكا	سورية	٢٠٤٩
٣	حلب	سورية	٢٤٣٥	١٩	الحجاز	جزيرة العرب	٢٣٤٩
١	سنار	السودان	٤٥٤٧	٢٠	اليمن	جزيرة العرب	٢٦٧٧
٢	عينتاب	سورية	٢٢٥١	٢١	الحجاز	جزيرة العرب	٢٢٦٣
٣	اليمن	جزيرة العرب	١٥٢٦	٢٢	أورفه	سورية	٢٢١٢
٤	مرعش	سورية	٢٥٩٣	٢٣	ينبع	جزيرة العرب	٢٣٤٢
٥	أدنه	سورية	٢٦٢٩	٢٤	أنتيوش	سورية	٣١٣١
٦	كيليس	سورية	٢٣٦٢	٢٥	القدس	سورية	١٧٥٥
٧	الحجاز	جزيرة	٢١٩٢	٢٦	القاهرة	مصر	٣٣١٨

		العرب					
٨	سنار	السودان	٣٣٩٦	٢٧	الجديدة	مصر	٢١٢٩
٩	حلب	سورية	٢٣٠٤	٢٨	الجديدة	مصر	٢٤٤٦
١٠	حلب	سورية	٢٠٥٤	٢٩	ادنة	سورية	٣١٧٢
١١	أورفه	سورية	٢٣٣٨	٣٠	حماه	سورية	٢٩٢٥
١٢	عينتاب	سورية	٢٣٢٦	٣١	حلب	سورية	٢٤٠١
١٣	الحجاز	جزيرة العرب	١٢٢٥	٣٢	القاهرة	مصر	٣٣١٨
١٤	حلب	سورية	١٩٨٨	٣٣	إسكندرية	مصر	٢٦٠٤
١٥	الدرعية	جزيرة العرب	٢٥٥٥	٣٤	كيليس	سورية	٢٥٦٤
١٦	كندية	جزيرة كريت	٣١٤٩	٣٥	القاهرة	مصر	٣٢١٢
الفرسان							
١ حرس	انطاكية	سورية	٧٩٦	٧	طرسوس	سورية	٧٤٢
٢	البسام	سورية	٨٤٤	٨	دمشق	سورية	٧١٢
١	أورقه	سورية	٨٢٥	٩	اسكندرية	مصر	٨١٦
٢	زنبه	سورية	٨٣٠	١٠	عكا	سورية	٧٦٨
٣	القاهرة	مصر	٨٤٧	١١	كلييس	سورية	٧٥٦
٤	أدنة	سورية	٦٧٨	١٢	طرسوس	سورية	٦٦٢
٥	القاهرة	مصر	٨٣٢	١٣	أورفة	سورية	٨٠٦
٦	دمشق	سورية	٧٧٠				
١ حرس	حماة	سورية	١٣٧٢	٢	دمشق	سورية	١٠٠٧

٢	أسكندرية	مصر	٢٣٤٩	٣	القاهرة	مصر	٣٢٢٥
٣	حلب	سورية	١٩٤٩	ـــــ أورطه	الحجاز	جزيـــرة العرب	٣٧٩
١	حمص	سورية	٩٨٢	٤ بلوكات	عكا	سورية	٣٣٧
المهندســـون							
١	عكا	سورية	٨١٢	ـــــ أورطه	أسكندرية	مصر	٨٠٨
ـــــ أورطه	ادليب	سورية	٧٥٨	ـــــ أورطه	القاهرة	مصر	٥٦٤

مجموعة قوة الجيش النظامي المصري سنة ١٨٣٧ م

	عـــدد		عـــدد
المشاة	٩٦٩٩٩	المدفعية	١١٦٠٠
الفرسان	١١٦٨٤	المهندسون	٢٤٩٢

وهذا بيان توزيع الجيش المصري على الأقطار

	عـــدد		عـــدد
مصر	٢٦٥٦٨	السودان	٧٩٤٣
سورية	٦٧٩٥٧	جزيرة كريت	٣١٤٩
جزيرة العرب	١٧٦٠٨		

النفقـــــات

بيان النفقات التي صرفت على الجيش في سنة ١٨٣٧م

٧٥٤٦٠٤ جنيهات مصرية

بيان ما خصَّ الجندي الواحد في النفقات

١٢٣٢٢٥ عدد الجنود على ٧٥٤٦٠٤ جنيهات قيمة النفقـــات، يخـــص الجنـــدي ٦ جنيهات و١٢٤ مليما.

وعدا هذه القوة النظامية فقد كان يوجد قوة غير نظاميـــة مشـــكلة مـــن الباشبوزق والعربان موزعين حسب الآتي:

	عـــدد		عـــدد
مصر	٨٥١٩	السودان	٣٥٨٦
جزيرة العرب	١٥١٩٦	جزيرة كريت	٣١٣٥
سورية	١١٠٣٥		

نفقات هذه القوة

أما المصاريف التي كانت تصرف على هذا الجيش فكانت كما يأتي

٥٦٣٩٧ جنيها

بيان ما خص كل جندي من هذه القوة غير النظامية في النفقات

٤١٤٧١ عدد الجنود على ٥٦٣٩٧ جنيها قيمة النفقات، يخص الجندي الواحد

جنية و٣٦٠ مليمًا

القوى البحرية المصرية في عهد محمد علي

وإليك ما كتبه حضرة صاحب السعادة **إسماعيل سرهنك باشا** قال: بعد أن بارحت الجنود المصرية بلاد موره، أخذ محمد علي باشا يهتم في إتمام ما كان شرع فيه من الإصلاحات، وكان من أول أعماله الشروع في توسيع وإصلاح ميناء الإسكندرية لقلّة عمقها وعدم كفايتها للسفن التي تضطر أن ترسو بعيدة عن الشاطئ، مما يجعل شحن وإخراج البضائع منها يتكلف مصاريف كثيرة، فأحضر الكراكات من أوروبا، ولما أتت أخذوا في تعميق الميناء، فتم بعد قليل من الزمن، وجعل لها إدارة مخصوصة سُمّيت بإدارة ليمان رئيس، وجعل نظارتها لضابط يُدعي بوزجه أطه لي **مصطفى جاويش**، فكان أول رئيس ليمان لميناء الإسكندرية، ولما كانت الدوننما الأصلية أحرقت في «**موقعة موره**» اهتم العزيز بإيجاد سفن جديدة أخرى لتعزيز قوته البحرية، فوجه عنايته أولاً لتشييد «**دار صناعة**»[1] مهمة، مع ما تحتاجه من المعامل

---

(١) أول تأسيس «دار الصناعة» في مصر لعمل السفن وإعداد معداتها كانت في جزيرة مصر (جزيرة الروضة) في سنة ٥٤هـ، ثم عُني أحمد بن طولون في توسيعها وتحسينها، ثم نقلت إلى الفسطاط في أيام الأخشيد في أول القرن الرابع الهجري حتى لا يكون بينها وبين الفسطاط بحر، ثم أنشأ الفاطميون «دار صناعة» في المقس (خِطة كبيرة كانت على شاطيء النيل وقتئذ، وكان بها جامع المقس الذي تهدم وشيد مكانه جامع أولاد عنان الآن) بقرب مدينتهم القاهرة، ويراد بدار الصناعة ما نعبر عنه اليوم بالترسانة أو الترسخانة، وهما منقولتان عن تلك، فإن الإفرنج لما اختلطوا بالمسلمين، وافتتحوا بعض البلدان العربية أيام الحروب الصليبية، كان من جملة ما اقتبسوه عنهم صناعة المراكب، كما اقتبسها العرب عن الأمم التي قبلهم وسمى الإسبان دار الصناعة، وأخذتها عنهم سائر أمم أوروبا، فقال البرتغال «ترسانة»، وقال الطليان في اول الأمر «درسانة».

وقال الفرنسيون والإنجليز واسترد العرب كلمتهم عن الإسبان مصبوغة بلون إفرنجي بطريقة التركية فقالوا كما قال الترك «ترسانة»، بل ترجمها بعضهم أكثر من الترك أنفسهم فقالوا «ترسخانة» مع أن الطليان =

والمصانع لإنشاء وترميم السفائن، وكان الشروع في ذلك سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م)، واشتغل العساكر في بنائها، وتمت سنة ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م)، وشحنها بالآلات والأدوات، وأحضر لها في سنة ١٨٣٢م من مدينة طولون مهندسًا ماهرًا يدعي **سيرزي** جعله باشمهندسًا، ورقّاه إلى رتبة البكوية، وهاك أسماء الورش والمصانع بدار الصناعة المذكورة:

عدد		عدد	
١	ورشة التيالة، لعمل الحبال	٩	ورشة الترزية لعمل السناجق والأعلام
٢	ورشة الحدادين لصناعة الحديد	١٠	ورشة الفلانك لصناعة الزوارق
٣	ورشة القلوع لعمل الشراعات	١١	ورشة النجارين لصناعة النجارة اللازمة للسفن
٤	ورشة السواري لصناعة الساريات	١٢	ورشة الطولومبات لصناعة الطولومبات
٥	ورشة البُصل والنظارات لعمل ذلك	١٣	ورشة الجلافطية لجلفطة السفن
٦	ورشة الدكمخانة لصب الآلات	١٤	ورشة البورغوجية لثقب الأخشاب
٧	ورشة البوية لصناعة الدهانات	١٥	ورشة مخازن الذخائر والمهمات الحربية
٨	ورشة المخرطة لعمل البكرات وغيرها		

وكان بدار الصناعة المذكورة خمسة قزافات أي مزلقانات لصناعة السفن، واهتم **سيرزي** بك المذكور مع **الحاج عمر** مهندس الترسانة القديمة بتعميق البحر من ناحية الترسانة الجديدة، حتى صيَّراه في عمق كاف لرسو أكبر

= لا يزالون إلى اليوم يقولون «درسانة»، ولكنهم يريدون بها القسم الداخل في جوف الميناء، حيث يربطون السفن المحتاجة للتعمير بعد نزع آلاتها وجهازاتها.

ويقال نحو ذلك في لفظ «أميرال» الإفرنجية؛ فإنها مأخوذة عن أمير البحر أو «أمير الماء» العربية، وأول من استعمل هذا اللقب في أوروبا أهل جنوة وغيرهم من الطليان.

السفن الحربية، ورتبوا لها الصُناع من كل نوع، وكانوا تحت ملاحظة **الحاج عمر**، المذكور وكان لهذا الرجل استعداد ومعرفة طبيعية غريبة في بناء السفن، وقد تمكن في السنة الأولى من إنشاء سفينة من نوع «القباق»، وجلب العزيز كثيرًا من شبان المصريين من جميع المديريات لتعليمهم صناعة عمل السفن، وما يلزم لها من الآلات، ووزعهم على المعامل، فاختص كل جماعة منهم بفرع من فروع إنشاء السفن.

ونبغ كثير منهم في هذه الأعمال حتى بلغوا درجة عظيمة، وحصلت مصر بهم في زمن قليل على عدة سفن حربية عوضت بها أساطيلها التي فقدت في «موقعة نوارين»، بل وزادت قوتها البحرية أضعاف ما كان لها، وشيَّدت عدَّة من السفن المُسماة «نصف قرصان»، أو «ميزة قرصان»، فتوفَّرت لديها أسباب النقل والحمل، وخصصتها بنقل ما يلزمها من الأخشاب وغيرها، وكان بعضها يشتغل بالتجارة، والحاصل أن صناعة إنشاء السفن بالإسكندرية، وصلت لدرجة تضارع في الجودة والمتانة سفن أعظم البلاد الأوروبية، وصار في أمكان مصر صناعة كل ما تحتاجه سفن الدوننما، ولما تحصّل العزيز على تصريح من الحضرة السلطانية يُجيز له قطع الأخشاب اللازمة من غابات الأناضول، عين لذلك الصناع والعمال تحت إمرة كل من الحاج **حسن بك** نجار باشي دار الصناعة **والسيد أحمد** أحد عماله، وبذلك صار بالإسكندرية القدر اللازم من الأخشاب، وكان المشتغلون بإنشاء المراكب وإصلاحها يبلغ عددهم ٨٠٠٠ نفس من الأهالي الذين تخرجوا على أيدي مهرة من الأوربيين، وأتقن منهم نحو ١٦٠٠ صناعة إنشاء السفن؛ فاستغنت بذلك مصر عن ابتياع السفن من الخارج، وفتح العزيز أيضًا مدرسة لتعليم نحو اثنى عشر ألفًا من الجنود

الأعمال البحرية، أخذهم من كل المديريـــات، وكانوا يُقيمـــون على الساحـــل بجوار طواحيـــن الريـــح (الموجودة للآن بالشمال الشرقي من رأس التـــين)، وجعلوا لهم فوق البر مركبًا بصواريها وشراعاتها لتعليمهم استعمال الشراعات وغيرها، وكان ذلك تحت رياسة المسيو **بيسون بك**، ولما تدربوا وزعوهم على السفائن الحربية، فانتظمت طوائف السفائن، وصارت نظاماتها تحاكي النظامات البحرية بالأساطيل الاوربية، ونقل ما كان بتلك السفن مـــن الملاحـــين غيـــر النظاميين إلى سفنه المسماة «**بميزة قرصان**» التي جعل لها إدارة خاصة تحت رئاسة **محمد قراقيش قبودان**، ثم خلفه فيها **محمد** راشد **بك**، ثم بوزجـــه أطـــه أوزون **أحمد قبودان**، وأدخل جملة تحسينات في المدرسة البحريـــة[1] التـــي أنشأها سنة ١٢٤١هـــ (١٨٢٥م) وجعلها تحت نظارة (حسن بك القبرســـلي)، وكانت المدرسة المذكورة بإحدى السفن الحربية، ثم قسمت هذه المدرسة إلـــى فرقتين جعلت كل واحدة منهما بسفينة، وتعين لنظارتها **كنج عثمان بك**، وسبب ذلك أن العداوة كانت استحكمت حلقاتها بين حسن بك السابق الـــذكر وبـــين عثمان باشا سر عسكر الدوننما، فانتهز الناظر المذكور فرصة خروج التلامذة

---

(١) وقد نبغ من هذه المدرسة البحرية كثيرون أشتهروا فب الاعمال والحروب البحرية، وممن عثرنا على أسمائهم منهم: خير الدين قبودان، وعبد اللطيف قبودان، وأحمد نورى قبودان (الملقب بالجوخدار) = وحسين شرين قبودان، وجعفر مظهر قبودان، (وهؤلاء ترقوا فيما بعد على رتبة الباشوية) وحافظ قبودان مصطفى، وبرغملى أحمد قبودان، ومصطفى قبودان الكرتلى، وحاجو قبودان، وحافظ قبودان الشيرازى وبودرملى أحمد خوجه قبودان ، وعارف قبودان، وإسماعيل قبودان الكرتلى، وأمين قبودان، وبابا سليم قبودان، وأحمد شاهين قبودان، (الملقب بأبى فصاده) ومحمد راشد قبودان، وسليم قبودان، وسليم قبودان، ووسيل قبودان، وإبراهيم قبودان (الملقب بقره كوز) وعثمان قبودان (الملقب بقاح) وعثمان قبودان(الملقب بالبوتى) وسليمان قبودان الملقب (بالبيرقدار)، ومصطفى قبودان (الملقب بالبلاوجى) وبوغجه أوطه لى أمين قبودان، وبوغجه أطه سليمان قبودان، ومطوش قبودان، وغيرهم ممن لم نعثر على أسمائهم .

يوم الجمعة، ومرور السر عسكر بزورقه فأحرق جبخانة المدرسة بقصد قتل السر عسكر، فهلك هو ولم يصب السر عسكر بضرر، ثم سارت إحدى الفرقتين بسفينة «شير جهاد»، ومعها «قرويت» عليه « **برغملي أحمد قبودان**»، وإبريق آخر قاصدة «جزيرة كريت»، ولمَّا كانت على مقربة من الجزيرة قابلها «غليون روسي»، وكانت الحرب قائمة بين الدولة والروسيا، فأطلق الغليون القنابل على السفن المذكورة بقصد أسرها، فتمكنت «شيرجهاد» لسرعة سيرها من الهرب، وأسر الروس القرويت المذكور سنة ١٢٤٣هـ (١٨٢٧م) .

وقد نبغ من هذه المدرسة البحرية كثيرون اشتهروا في الأعمال والحروب البحرية، كما اشتهر بعضهم في حُسن العمل عندما نقلوا إلى إدارة أخرى، وفي تلك الأثناء انتخب العزيز بعض ضباط البحرية وأرسلهم إلى فرنسا وإنجلترا لإتمام علومهم بهما، ومُمارسة الفنون الحربية على أساطيلهما وأصحبهم بكتب التوصية على يد قنصلي فرنسا وإنجلترا، وكان الذين أرسلوا إلى فرنسا **حسن أفندي الإسكندراني**، و**شنان أفندي**، و**محمود أفندي نامي** الملقب بجركس، وإلى إنجلترا **عبد الحميد أفندي**، و**يوسف آكاه أفندي**، و**عبد الكريم أفندي**، ولما أتموا علومهم عادوا إلى مصر فوظفوهم بالسفن الحربية، وكلفوهم بترجمة القوانين والنظامات المستعملة بعمارات الدولتين المذكورتين، وأرسل العزيز أيضًا إلى أوروبا تلميذين آخرين لتعلم فن إنشاء السفن هما **حسن أفندي السعران** سافر إلى فرنسا، و**محمد أفندي الإستانبولي** سافر إلى إنجلترا، ولما أتقن هذان التلميذان ما أُرسلا لأجله عادا إلى الأوطان، فوُظفا في دار صناعة الإسكندرية مكان **سيرزي بك** الذي استقال لتعصب تجار الفرنج عليه، وهم الذين كانوا تعهدوا بشراء السفن لمصر من معامل أوروبا بالأثمان الباهظة،

لأنهم لما رأوا تقدم الوطنيين في صناعة السفن نسبوا حرمانهم هـذا لصـداقة **سيرزي بك** المذكور، وقيامه بما عهد إليه، ومع ذلك فإن أولئـك التجـار لـم ينجحوا في تحويل نظر العزيز عن مقصده، حيث صارت الترسانة بعد استقالة **سيرزي بك** وسفره ناجحة في أعمالها كما كانت، بل ازدادت همَّـة مهندسـيها الوطنيين عن ذي قبل، واجتهد حسن بك السعران ومحمد بك الإستانبولي فـي العمل بجد ونشاط وإتقان حتى بلغت العمارة المصرية درجة وأهمية عظيمتين جدًا، وكان محمد علي باشا قد جعل **عثمان بك نور الدين** سر عسـكر علـى الدونتما المصرية منذ سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧م)، وقد بذل هذا الرئيس الماهر قصارى جهده وعنايته في إكمال التعليمات وتنظيم قواعدها بما كان يصـدره دائمًا من الأوامر على رجال البحرية لتطبيق القوانين على التعليمات، واهـتم قبودانات السفن بتنفيذ هذه الأوامر بالدقَّة، حتى بلغ النظام بالأساطيل المصرية فوق ما كانت تتطلع إليه الآمال، وكان يخرج بالسفن سنويًا - زمن الصيف - لإجراء المناورات وتدريب الجنود على الحركات البحرية الحربية مدة ثلاثـة شهور، حتى وصلت العمارة المصرية درجة رفيعة جدًا، وأصـبحت تماثـل عمارة الدولة العلية في العِدد والعَدد، ولبس القطر المصري بها حُلَّة الفخـر، حيث لم ير مثلها جميع الدهر سيما عندما بنى المنـار الموجـود الآن بـرأس التين، وازداد به الأمن على السفن الصادرة والواردة إلى ميناء الإسـكندرية، وكان المباشر لبنائه المهندس الشهير **مظهر باشا**، وجعل ارتفاعه ستين متـرًا، ونوره يُشاهد من ١٦ ميلاً، بل أكثر من ذلك.

ولما مات الأميرال الثاني **بيسون بك** الفرنسي تولى بعده المسيو **هوساربك**، وكان قد استقدمه محمد علي باشا لتعليم ولده الأمير **محمد سعيد باشا** الفنـون

البحرية، ولما أحرز سعيد باشا من ذلك نصيبًا تعين قبودانًا على قرويت دمنهور برتبة «**صاغقول أغاسي**»، وجعل في معيته الموسيو **كنيك** واليوزباشيه **عرفان قبوادن** (عرفان باشا)، و**ذو الفقار قبودان** (وهو ذو الفقار باشا ناظر الخارجية سابقًا)، والمرحوم **والدي سرهنك قبودان** بوظيفة مفردات سنة ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م)، ولما تُوفى (مصطفى مطوش باشا)[1] سر عسكر الدوننما المصرية، بعد ذلك بسنتين نَصَّب **محمد علي باشا** ولده **محمد سعيد باشا** مكانه سر عسكرًا عامًا على الدوننما المصرية، وسواريًا للغليون المسمى بني سويف، وصار **هوساربك** المذكور أميرالاً ثانيًا، ومعه اليوزباشي **منويلي** مترجمًا له، وكان أغلب رؤساء الدوننما يوظفون في ذلك الوقت في مصالح دار الصناعة مدة إقامة الدوننما في ميناء الإسكندرية، وأمر محمد علي باشا إذ ذاك بعمل حوض في الترسانة، وأحال هذا العمل على مظهر باشا، وبهجت باشا، وكانا قد قدما حديثًا من أوروبا، وضم إليهما **لينان بك**، ثم **موچيل بك**، وهو الذي قام بإنشاء الحوض المذكور، وكان تمامه سنة ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م)، وعاد هذا العمل على سفن مصر والسفن الأجنبية بالفوائد العظيمة، وفي هذا الوقت استعملت الجنازير والسلاسل في السفن المصرية بدل الأحبال سنة

---

(١) مصطفى مطوش باشا، أصله من «قوله»، وكانت صناعته قبودًا بالمراكب الشراعية التجارية، ولما قدم إلى الديار المصرية استخدمه محمد علي باشا في دونمته، وكان يثق به ويعلم مقدار معارفه البحرية، فجعله كوكيل للدوتنما التي بعثت بها لمساعدة الدولة في «حرب موره» سنة ١٢٣٦ هـ، وحضر «موقعة نوارين» سنة ١٢٤٣ هـ، ثم جعل ويس أمير للدوننما التي أرسلت لضرب عكا تحت قيادة عثمان نور الدين باشا سنة ١٢٤٧ هـ، ثم جعله= = محمد علي باشا سر عسكرًا على الدوننما المصرية بدلاً من عثمان باشا سنة ١٢٤٩هـ، وقد بقي رئيسًا على الدوننما المصرية على أن توفى سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣م) .

١٢٥٧هـ (١٨٤١م)، فترقَّت بذلك حالة السفن، وقد عثرت على أسماء سفن مصر ومقاساتها وأبعادها في الوقت المذكور مُحرَّرة بيد المرحوم **حسن باشا الإسكندراني** عند ولده صاحب السعادة محسن باشا فأوردتها هنا كالآتي إتمامًا للفائدة.

بيان أسماء سفن مصر ومقاساتها وأبعادها في أيام محمد علي

نوع السفينة	اسمها	محل إنشائها	اسم قبودانات‌ها زمن سر عسكرية محمد سعيد باشا	عدد المدافع	عدد الطائفة
قباق	عكا	إسكندرية	عثمان بك قاح	١٠٦	١١٤٨
قباق	مصر	إسكندرية	شنان قبودان	١٠٦	١٠٩٧
قباق	بني سويف	إسكندرية	الأمير محمد سعيد باشا	١٠٢	١٠٣٤
قباق	المحلة الكبرى	إسكندرية	بوزجه اطه لي خليل بك	١٠٠	١٠٣٤
قباق	المنصورة	إسكندرية	طاهر قبودان	١٠٠	١٠٣٤
قباق	الإسكندرية	إسكندرية	جركس محمود قبودان	١٠٠	١٠٣٤
قباق	حمص	إسكندرية	عثمان بوتي بك	١٠٠	١٠٣٤
قباق	حلب	إسكندرية	ازميرلي محمد قبودان	١٠٠	١٠٣٤
قباق	الفيوم	إسكندرية	عبداللطيف بك	١٠٠	١٠٣٤
قباق	بيلان	إسكندرية	حسين شرين بك	٨٦	٩٠٠
قباق	ابو قير	إسكندرية	حافظ خليل قبودان	٨٤	٧٣٦
فرقاطه	منوف	إسكندرية	عثمان بوتي بك	٦٤	٥٥٨
فرقاطه	رشيد	تريستا	السيد علي قبودان	٦٠	٥١٠
فرقاطه	الجعفرية	ليفورن	برغمة لي أحمد قبودان	٦٠	٥١٠
فرقاطه	شير جهاد	ليفورن	نوري قبودان بك	٦٠	٥١٠
فرقاطه	البحيرة	تريستا	كاور خورشيد قبودان	٦٠	٥١٠
فرقاطه	دمياط	إسكندرية	محمد هدايت قبودان	٥٦	٤٧٠
قرويت	بومبه	تريستا	بيجان قبودان	٤٥	٣٠٠
قرويت	رهبر جهاد	مرسيليا	علي رشيد قبودان	٣٠	٢٠٠
قرويت	طنطا	إسكندرية	دلي خسرو قبودان	٢٨	١٨٦
قرويت	بواسطة جهاد	جزاير الغرب	دلي محمد خورشيد قبودان	٢٨	١٨٦
قرويت	دمنهور	إسكندرية	مرجان قبودان	٢٦	١٨٦
قرويت	جناح بحري	جنوة	زتيل قبودان [وكانت لتعليم التلامذة]	٢٤	١٨٥
قرويت	بلنك جهاد	مرسيليا	غير معروف	٢٤	١٨٥

قرويت	جهاد بيكف	جنوة	حسن اباظة قبودان	٢٤	١٨٥
قرويت	فوه	إسكندرية	مرجان قبودان	٢٤	١٨٥
قرويت	شاهد جهاد	إسكندرية	إبراهيم قبودان	٢٤	١٨٥
أبريق	بادي جهاد	امريكا	غير معروف	٢٤	٨٩
أبريق	سمند جهاد	مرسليا	أحمد شاهين قبودان	١٨	٨٩
أبريق	نمرة ٢	أمريكا	الياس قبودان	١٨	٨٩
ابريق	شهباز جهاد	مرسيليا	حسن الأرناؤد قبودان	١٨	٨٩
غوليت	صاعقة	ليفورن	طاهر قبودان	٢٤	٨٨
غوليت	تمساح	مرسيليا	غير معروف	١٦	٨٨
غوليت	كوتر نمرة٢	إسكندرية	سرهنك قبودان	١٢	٥٢
فرقاطة بخارية	النيل	انجلترا	غير معروف	٦	٥٢

ملاحظة: تتبع هذه السفن ثلاث بواخر أخرى وهي: وابور برواز بحري صنع سنة ١٢٦٦هـ، ووابور أسيوط سنة ١٢٦٢هـ، ووابور چيلان بحري سنة ١٢٦٥هـ، ووابور الشرقية – وسُمي فيما بعد بفرقتين مخبر سرور سنة ١٢٦٢هـ، ثم ركبت آلاته بلندرة– ووابور رشيد وهو قرويت سنة ١٢٦٢هـ، وسفائن التجارة الأميرية وهي سفن للنقل وغيرها، ولم يكن ضباط هذه السفن وقبوداناتها تبقي في سفينة واحدة، بل كانت تنتقل من سفينة إلى أخرى بحسب الترقيات وظروف الأحوال، وغير ذلك كما هو معلوم.

النفقات البحرية المنصرفة على هذا الأسطول

٣٧٧٥٥٣ جنيهًا

بيان ما خص كل جندي في النفقات التي صرفت على الجيش البحري

عدد الجنود ١٦٨٠٦ على ٣٧٧٥٥٣ جنيها النفقات يخص الجندي ٢٢ جنيهًا و٤٦٥ مليمًا.

مجموع قوة الجيش البري والبحري في سنة ١٨٣٧ م

القوة	النفقات		القوة	النفقات	
عدد	جنية		عدد	جنية	
١٢٣٢٢٥	٧٥٤٦٠٤	الجيش البري النظامي	١٦٤٦٩٦	٨١١٠٠١	مجموع الجيش البري
٤١٤٧١	٥٦٣٩٧	الجيش البري غير النظامي	١٦٨٠٦	٣٧٧٥٥٣	الجيش البحري النظامي

والميزانية المصرية في السنة المذكورة، كان مقدارها ٢٤٢١٦٩٠ جنيها.

وفي الختام ألقي هذا الاقتراح على مسامع رجالات الأمة والحكومة، فإن وقع لديهم موقع الاستحسان - وإني لأطمع في ذلك- كانت الغاية المرجوة لي.. وهو:

«أن تقيم الحكومة احتفالا تاريخيًّا لمرور مائة عام على تشكيل الجيش النظامي في مصر، ولها أن تختار أحد التاريخيين الآتيين مبدأ لمرور المائة عام..

إما سنة ١٢٣٦هـ (١٨٢٠م)، وهي السنة التي أرسلت فيها المماليك إلى أسوان لتعليمهم، وهذا المبدأ وإن كان مضي عليه أكثر من قرن، إلا أن ما كنا فيه من الظروف الاستثنائية يقيم لنا العذر في اختياره..

وإما سنة ١٢٤٠هـ (١٨٢٤م)، وهي السنة التي دخلت فيها الآلايات المصرية النظامية الأولى القاهرة لأول مرة في حياة مصر الجديدة..

وهذا التاريخ أفضل من الأول لاتساع الوقت له، وسلامته من الاعتراض الذي ذكرناه، فضلاً عمًّا فيه من مراعاة القومية المصرية الجديرة بالمراعاة من كل وجه..

ولابد أن يكون للجيش المصري في هذا الاحتفال الدور المهم في تمثيل هذه الذكرى، فمن المستحسن أن تلبس أقسام من جنوده الملابس التي كانت تلبسها جنود الجيش المصري في القرن الماضي..

وإني أترك بعد ذلك المجال لغيري في اقتراح الكيفية التي يكون عليها هذا الاحتفال الجليل..
والله المسئول أن يأخذ بيد أمتنا العزيزة إلى كل ما فيه صلاحها وفلاحها».

هذا ما دبجه يراع حضرة صاحب السمو الأمير الجليل **عمر طوسون**، وإنا نضاعف واجب الشكر لسموه على حسن عنايته بمثل هذه الأبحاث التاريخية النافعة، وعلى تذكيره الأمة من وقت لآخر بشيء من تاريخها الماضي المجيد الذي يبعث فيها روح النهضة القومية الشريفة.

ونقابل مع الارتياح التام والسرور والعظيم اقتراح سموه الجليل في عمل احتفال تاريخي لمرور مائة عام على تشكيل الجيش النظامي في مصر تشترك فيه الأمة المصرية الناهضة مع الحكومة والجيش، فيجب على الأمة المصرية على بكرة أبيها - وفي مقدمتها الشباب الناهض - أن تحل هذا الاقتراح العظيم محل الاعتبار والإنقاذ تحقيقًا لرغبة حضرة صاحب السمو الأمير الجليل الذي نذكر لسموه على الدوام بكل فخر وشكر أياديه البيضاء في خدمة مصر، وأنه كان (حفظه الله) في مقدمة حضرات أصحاب السمو الأمراء الأجلاء بانضمامهم للحركة الوطنية المباركة، وتشجيعهم لها بنفوذهم الشامل وعطفهم الكامل، لاسيما وأن الحكومة الآن في يد وزارة الشعب المحبوبة التي يرأسها ذو الرئاستين الرئيس الجليل والزعيم المفدّى حضرة صاحب الدولة **سعد**

زغلول باشا أبقاه الله لتحقيق الأماني القومية، وأيده بروح من عنده، والأمة المصرية الناهضة التي أصبحت – ولله الحمد– تقدر عمل المجاهدين في رفع شأن الوطن، لا يفوتها إحياء هذه الذكرى الخالدة؛ لأن الذي وضع نواة هذا الجيش النظامي مؤسس البيت العلوي السامي مُنقذ مصر ومُحييها، ساكن الجنان المغفور له محمد علي الذي انتقل إلى رحمة مولاه ولسان حاله يقول:

تِلْكَ آثَارُنا تَدُلُّ عَلَيْنا فَانْظُرُوا بَعْدَنَا إلَى الآثَارِ

ف : 1235 تاريخ استلام : 21/2/2008

فهرس محتويات الكتاب

هذا الكتاب

تزويرالتاريخ جريمة لا تغتفر، لا سيما إذا كانت في حق الوطن،
فكل كلمة تكتب بمداد الباطل لابدَّ أن يأتى من يعرف الحق ليمحو مدادها
وقديما قال الأقدمون

والدعَاوى ما لم يقيموا عليها بَيِّنَات أصحابها أدعياء

وهذه الدراسة ردٌّ على مزورى تاريخنا ونسبة الفضل إلى أعداء
داسوا بالغزو الكريه ترابنا

لقد مكث الشيخ الأصمعى ينقب ويسأل أهل الاختصاص في سر
تسمية القلعة باسم نابليون بونابرت رغم أنه لم يقم ببناء ولا تشييد،
فكانت الخلاصة أن القلعة تنسب حقيقة إلى رجل خدَمَ مصر ببناء القلاع
وتشييد المتاحف وعمل القناطر التى مازالت تشهد بالنهضة التى قامت
على يديه

إنها دراسة فريدة موثقة تثبت لك أن نابليون الغازى لم يبن في
مصر قلاع وإنما البانى هو محمد على باشا، وبذلك ثبتت الحقيقة
وبطلت أقوال مزورى التاريخ

اقرأ الأدلة الدامغة لتعلم أن الحق أحق أن يتبع

الناشر





الناشر
مكتبة ومطبعة الغد
٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - جيزة - ج . م . ع
تليفاكس / ٣٢٥٠٢٠٢